أسرار الضمائر

الأستاذ عبد الحق فاضل

خطورة الموضوع :

تبدو صيغ الضمائر وكأن كلا منها عنصر بسيط لا يقبل التجزئة ، كالجوهر الفرد : الذرة . لكن الذرة جزؤوها اخيرا ، واي تجزئة مثيرة لاغطة . كذلك الضمائر يمكن اخضاعها لتجزئة لا تقل اثارة ولغطا ، في عالم اللغة . ويخيل لنا أن تفجير الضمائر ، الذي نحن بسبيله الآن ، سوف ينسف من عالم اللغة مساحة اكبر مما نسفته القنبلتان الذريتان من مساحة اليابان ، واعمق مدى ، واكثر تشعبا وانتشارا في مختلف الجهات .

كنا تطرقنا الى موضوع الضمائر في كلمة بعنوان « لمحات من التأثيل اللغوي » — في العدد البارح من « اللسان العربي » — غير أن الموضوع من الخطورة والغرابة والامتناع بحيث وجدنا تلك « اللمحات » التي لا تشفي الغليل ابعث للتعطش الى مواصلة البحث والاستزادة منه تعمقا واستقصاءا . وكلما تمادينا فيه تمعنا زادت النفس له تفتحا وعليه اقبالا ، وزادنا البحث عطاءا وحسن جزاء . كأنه المنجم السخي من الذهب كلما اوغلت فيه حفرا زادك مكافأة .

واذا بالبحث في الضمائر يتكشف لنا عن اسرار عجيبة حقا ، ويمزق الحجب عن مخبآت لا نرانا مغالين اذا قلنا انها مذهلة .

ما خرافة نون الوقاية ؟ .. ما سر التثنية والجمع السالم ؟ .. من أين جاءت حركات الاعراب ؟.. ولام التعريف ؟ .. والتنوين ؟ .. كيف تميزت الآريات دون الساميات بأفعال الكينونة في الجملة الاسمية ؟ .. بل من أين نبعت الضمائر واسماء الاشارة .. في الآريات؟.

هذه الاسئلة جميعها — نعم جميعها — يعطينا درس الضمائر العربية الجواب الشافي عنها — وعن غيرها — لاول مرة في تاريخ علم اللغة .

واذا بهذه الضمائر السحرية تضرب بأصولها بعيدا في ماضي اللغة ، وتمتد فروعها وتتغلغل بعيدا في مختلف ارجاء جسم اللغة كأنها العروق الدموية تمده بنسغ الحياة .. حتى لا تكاد تخلو جملة في العربية ، أو بناتها الساميات ، والآريات ، من أثر لتلك الضمائر أو بقية من رواسبها .

واذا بالحقائق المتفجرة التي تجبهنا بها دراسة الضمائر تزلزل اللغات وتذرو الكثير من قواعد علم اللغة وبديهياته التسليمية ، في الريح .. وتفتح لنا آفاقا من المعرفة وطرائق البحث لم تكن ببال انسان .

وصفوة القول ان موضوع الضمائر هذا أخطر موضوع لغوي عرض لنا حتى الآن ، ولعله أخطر موضوع لغوي على الاطلاق .

وها نحن نزجي القول الى القارىء الكريم في هذا البحث الطويل العريض بما يمكن من ايجاز وما ينبغي من ايضاح وتعليل .

عناصر الضمائر :

اذا نحن استقرينا الضمائر وتناولناها بالتحليل وجدناها — منفصلها ومتصلها — تتألف من عناصر اولية ثلاثة هي : الهمزة (أ) ، والنون (نا) ، والتاء (تا).

اما الحروف الاخرى التي نجدها في بعض الضمائر فليست بالاثيلة فيها ، وانما هي زائدة او مبدلة . فالحاء في (نحن) زائدة حشرت بين النونين ، والهاء في (هو ، هما) وغيرهما مبدلة من الهمزة ، والميم في (هم ، انتما) وغيرهما مبدل من النون ، والكاف في (عندك ، رايتكم) وغيرهما مبدل من التاء . وسوف يتوضح هذا شيئا فشيئا مع استرسالنا في الحديث ، فلا حاجة بنا الى التوكيد عليه والتبسط فيه الآن قبل التحدث عن الضمائر نفسها ، ولا سيما اننا كنا قد خضنا في الموضوع بعض الخوض في المقال الآنف الذكر .

الهمزة

اذا فوجيء الانسان بما يثيره — وخصوصا ما يوجعه — كوخزة او لسعة ، صاح تلقائيا : (آ) . ويمكننا ان نسمي هذا الصوت « همزة **التنبه** » .

وقد لحظ الانسان الاقدم انه اذا صاح (آ) انتبه له الآخرون ، كما لحظ انه يتنبه هو ايضا اذا سمع احدا يقول (آ) . ففطن بعد زمن لا نعرف مداه الى ان بوسعه ان يستعمل همزة التنبه هذه (راديا) بمعنى « **التنبيه** » اي استلفات نظر الغير اليه . لهذا نعتقد انها استعملت اولا للنداء ، فما النداء الا تنبيه .

ومن همزة التنبيه تطورت **(هاء)** التنبيه التي عرفها النحاة وصدق حدسهم في تسميتها ومعرفة وظيفتها ، في مثل : هذا ، ها انتم ..

النداء :

ان همزة النداء ما زالت موجودة في العربية ، بنفسها كما لفظها الناطق الاول : (آ) ، او مبدلة ياءا : **(يا)** . والواقع ان الحرفين كليهما مستعملان في الفصحى للنداء منفردين ومجتمعين : آ ، أ ، **يا** ، **أيا** . وهذه الاخيرة وردت مرخمة بصيغة : **(أي)** ايضا .

وان كانت همزة النداء قد زالت من الدارجات في المشرق وحلت محلها الصيغة اليائية (يا) فانها ما زالت مستعملة في المغرب ، وكان اول ما سمعناها في الدار البيضاء من رجل ينادي صاحبا له على الطوار الآخر من الشارع : آ احمد .

على ان اختلاف عادات النطق من تغيير حركات اللفظة او حروفها جعل بعضهم ينطقها (او — 0) كما في بعض اللغات الاوربية . ومما يدل على عروبة هذه الهمزة المضمومة ان بعض المغاربة كذلك يستعملونها الى جانب الهمزة المفتوحة ، وطالما سمعنا العساس (حارس العمارة) ينادي ولده باعلى صوته : **أو** ابراهيم ، كما في الانكليزية والفرنسية تماما : O. Ibrahim

واما في الفارسية فهي (**اي** — αy) العربية بذاتها ، المرخمة من (ايا) .

ومن النداء بالهمزة نشأ الاستفهام بها ايضا : **(أ)** ؟

لغة الاشارات :

وقد كنا نوهنا — في المقال السابق — بان العلماء يعتقدون ان البشر بدأ التخاطب **بالاشارة** . وقد وجدوا قبائل في بعض القارات ما زالوا الى اوائل هذا القرن يتخاطبون بالاشارات حتى لتتعطل عندهم لغة الكلام في الليل ما لم يجدوا ضوءا يستأنفون فيه مطارحة الاشارات . ولعل بعض هذه القبائل ما زال على ذلك حتى اليوم .

كذلك يعمد الطفل الاصم الى الاشارات يعبر بها عما يريد وما يكره قبل ان يفطن ذووه احيانا الى انه اصم .

على ان الطفل السوي ايضا يفعل ذلك قبل ان يبدأ الكلام النطقي . بل لقد وجدوا حتى القرود تعمد الى الاشارات تعبر بها عن بعض ما تريد .

لهذا يبدو لنا ان الانسان العربي مزج لغة الصوت بلغة الضوء فاخذ يقول (آ) لينبه الآخرين اليه ويشير الى نفسه يعني : **(انا)** ، او يقول (آ) مشيرا الى مخاطبه يعني : **(انت)** ، او مشيرا الى شخص آخر او شيء ما يعني : **(هذا ، ذاك ، هو ..)**

الضمير العام

ومع توالي الاجيال رسخت الهمزة في الاذهان بهذا المعنى ، اي بهذه المعاني جميعها : **انا** ، **انت** ، **انتم** ، **هذا** ، **ذاك** ، **هو** ، **هي** ، **هم** .. مما ادى الى ترك اشارة اليد . وقد ساعد على ذلك من غير شك حلول الظلام كل ليلة ، فاستغنى الانسان عن اشارة اليد اضطرارا واكتفى بالصوت : آ . وبتعبير ادق ان الانسان استعمل صوت (آ) **ضميرا عاما** لاداء جميع معاني الضمائر واسماء الاشارة .

رواسب التنبيـــه والاشـــارة :

ويلاحظ ان الانسان ما زال فى كل مكان علـــى ما يظهر ، يشفع الكلام فى كثير من الاحيان باشـــارة يده الى نفسه أو مخاطبه أو غيرهما مع قوله : **أنـــا** ، أو **أنت** ، او **هـــو** .. خصوصا فى حالات التأكيـــد والانفعال . والانفعال هو الذي يرد الآدمي الى عهوده الاولى من تصرفاته الفطريـــة البدائيـــة ، مما يؤيد ان الانسان قد مارس لغـــة الاشارة دهورا مديدة ، حتـــى أصبحت فيما يبدو غريزية فيـــه .

ومن عجب ان الآدمي العربي لم يحتفظ باشارة اليد وحدها مع الكلام بل انه ما زال يحتفظ بـــأداة التنبيه نفسها مع الضمائر نفسهـــا بالاضافة الـــى اسم الاشارة ايضا ، فى بعض التعابير مثل : **ها** انا ذا، **ها** أنتم اولاء ، **ها** هي ذي ..

وان كانت (**ها**) تؤدي معنى خاصا فى هذه الامثلة فانها فقدت وظيفتها تماما فى اســـماء الاشـــارة مثل : هذي ، هؤلاء .. ففي وسعنا أن نقول : ذي ، أولاء .. دون حاجة الى هاء التنبيه ، وخصوصا ان اســـماء الاشارة الدالة على البعيد مجـــردة فعلا من هـــذه الهاء مثل : ذلك ، تلك ، أولئـــك .

فواضح ان اداة التنبيه واشارة اليد كلتيهما من رواسب العهود اللغوية الاولى ، وان اسم الاشـــارة وحده يغني عنهمـــا .

ضمائـــر الهمـــزة :

اصبحت الهمزة ضميرا عاما كالذي قلنا ، ثـــم اخذت تتطور لفظا ومعنى حتى ندر وجودها بمعنـــى الضمير فى العربية ، وانما نجدها اقرب الى صورتها البدائية الاولى وبمعناهـــا الضميـــري فى بعـــض الاعجميات ، وتهمنا منها هنا الآريات :

نجدها تعني (أنـــا) فى الانكليزيـــة بصيغـــة (آي — I) ، وفى الاسبانية بصيغة (يـــو — yo) فى بعض اللهجات وبصيغة (جو — jo) فى الفصحى، وبصيغة (جه — je) فى الفرنسية . أما فى الايطالية فتنطق بكسرة تليهاضمة (ايو — io) ، وربماكانت منها (ايكو — ego) باللاتينية . وهـــذا الضمير فى الصينية — ويا للعجب : (**وو** — wo) !

ونجد الهمزة تعني (هو) فى الفارسية بصيغـــة (او — û) وفى التركيـــة بصيغـــة (**او** — o)

ونجدها فى الانكليزية بمعنى نحن (**وي** — we) وبمعنى أنتم (**يو** — you) تقابلها فى الفرنســـية (**فـــو** — vous)

اما فى اللغة الام — العربية — فلم تبق الهمـــزة ضميرا او شبه ضمير الا فى أوائـــل الضمائر : أنا ، انت، انتما، الخ.. وأوائل بعض الافعال كصيغة المضارع المتكلم (افعل) ، وصيغ الامر : (افعل ، افعلي ، الخ) .. وبعض صيغ الافعال المزيدة مثل : انفعل ، افتعل ، استفعل . وقد يستبعد القارىء ان هاته الهمزات هي همزة التنبيه البدائيـــة ، فلنترك هذا الآن حتـــى يأتي اوانـــه وبرهانـــه .

لكن الهمزة انما تطالعنا كثيرا فى العربية بعد ان انقلبت هاءا . وبسبب اختلاف الجماعات فى نطـــق الحركات فتحا وضمـــا وكسرا نطقها بعضهـــم (**ها**) وبعضهم (**هو**) وبعضهم (**هي**) .. وهي موجودة بهـــذه الصور الثلاث فى العربية ، منفصلة ومتصلة .

ففي حالة الانفصال نجد (**ها**) اداة للتنبيه فى مثل: **هاؤم** اقرؤوا كتابيه ، **ها** انتـــم اولاء ، **هاذا** (هذا) ..

وكأنما افضى تماديهم فى استعمالها على هـــذا النحو لغرض التنبيه الى اهمال استعمالها ضميـــرا منفصـــلا .

ونجد (**هو**) ضميرا للغائب فى العربية مقابل (**او**) فى الفارســـية . اي ان هذه الصيغة الهمزية الفارسية اعرق ، او افصح ، او اعرب ، او ما شئت ان تقول ..

وتوجد (هو) فى الانكليزية بنفس النطق (هو — who) بمعنى : الـــذي .

واما صيغة (**هي**) فتخصصت فى العربية بالانثى . ونعتقد انها كانت تعني الذكر أول الامر ، بدليل انهـــا ما زالت تعني الذكـــر فى الانكليزيـــة (**هي** — he) اي : هـــو ! يضاف الى ذلك انها ما زالت فى العربية ايضا تعني الذكر ضميرا متصلا اذا سبقتها الياء مثل: اليهي (اليه) ، فيهي (فيه) .. وفى الاضافة من قبيل : فى دارهي (داره) .

واما فى حالة الاتصال فنجد الصيغ الثـــلاث (ها ، هو ، هي) فى العربية فى مثل : منها ، عندهـــو (عنده) ، عليهي (عليه) .

النـــون

يطالعنا النون فى الضمائر العربية : أنا ، نحن ، انت (للمخاطب والمخاطبة) ، انتما ، أنتم ، أنتن ، هن.

ونراه ضميرا متصلا لجمع المتكلم في مثل : نظرنا ، دارنا ، نفعل ..

أما في الاعجميات فنجده مثلا في اللاتينية (نوس — nos) : نحن = في الفرنسية (نوس — nous) وينطق (نو) . أما في الصينية فهو (ني — ni) بمعنى أنت .

وفي الفارسية نجد النون في كثير من الضمائر أيضا منها (آن) : هو ، لغير العاقل أو (ذلك) للعاقل وغيره .. وفي (آنان) : هم ، اولئك .. وفي (من — man) : انا .. وفي (اند — and) : هم ، (ضميرا متصلا) ..

أما منشأ هذا النون في اللغة فلا نعرفه على وجه اليقين ، لكننا نخاله من انفاء الطفل حين يقول : دادادا .. تاتاتا .. نانانا .. وغير ذلك .

ويبدو أنه اتفق قدوم شخص عند قول احد الاطفال : ماما .. وقول غيره : بابا .. وقول ثالث : دادا .. وقول رابع : **نانا** .. فتخصصت الاولى مع الزمن بمعنى الام ، والثانية بمعنى الاب ، والثالثة بمعنى الاخ (بلغة العراق مثلا ، وهي تنطق بالفارسية : داداش) .

أما (نانا) فلعلها استعملت بمعنى بعض الاشخاص أو الاقارب اول الامر مثل بابا ، وماما . غير ان الطفل لا يحسن التمييز بين الاشياء المتماثلة بل كثيرا ما يعمم اللفظ على المدلولات المتقاربة في ذهنه، فقد يدعو كل الطيور دجاجة ، أو كل الثمار عنبا ، وهكذا . وقد اتفق اني دخلت حانوتا قبل بضعة أيام فاذا طفل تحمله أمه على ذراعها يمد يده الصغيرة الى وجهي قائلا : بابا ! .. ربما لانه وجدني اشبه أباه في شيء ما ، او لان كل رجل عنده بابا . لهذا كان من السهل ، بل من المفروض ، ان يعمم الانسان الاقدم في احتقاب طفولة اللغة — لفظا يعني ضميرا أو شخصا من الاقارب ، على جميع الضمائر والاقارب . هذا بالاضافة الى فقره اللغوي الذي يجعله يستعمل اللفظة في عدة معان .

والذي يجعلنا نظن ان النون قد استعمل بمعنى بعض الاقارب قبل استعماله ضميرا عاما ، أو بالاضافة الى استعماله ضميرا عاما ، هو اننا نجده ما يزال حتى اليوم مستعملا بصيغته البدائية الطفلية (نانا) بمعنى زوجة الاب بلغة الموصل وبمعنى الوالدة بصيغة (نينه — nenah) بالمصرية و (ننه — nameh) بالفارسية .

ومهما يكن فقد استعمل النون كذلك ضميرا عاما كهمزة التنبيه ، منذ سحيق الاحقاب ، وتفرقت صيغه المختلفة في مختلف الضمائر العربية ، مفتوحا ومضموما ومكسورا .

اما مفتوحا فنجده في (أنا) وفي أول (نحن) . ويجيء (نا) ضميرا متصلا بالاسم والفعل والحرف مثل: دارنا ، تصدنا ، لنا .

ويجيء مضموما في آخر (نحن) ، وفي أول بعض صيغ الافعال مثل : نقدم ، نعطي ..

نون الوقاية :

ويجيء النون مكسورا بصورة (ني) مفعولا به في مثل : يسعدني ، انتظروني ، دعاني ..

وقد ظن النحاة ان الضمير في هذه الامثلة ونحوها هو الياء وحدها ، لانهم وجدوها وحدها ضميرا في مثل : داري ، يدي ، عندي ..

وأما النون هنا فاخضعوه لاحد تأويلاتهم المشهورة فقالوا ان الغرض منه وقاية آخر الفعل من الكسر ، كأنما كسر آخر الفعل امر مناقض لنواميس الوجود ، فلم يجد الاعارب الاقدمون مناصا من تجنبه في كلامهم .

ان الاسم المعرب يكون مفتوحا أو مضموما أو مكسورا حسب موقعه من الاعراب كما هو معروف ، فلو كان الحفاظ على حركة آخر الكلمة من القداسة بحيث توهموا لكان ذلك شأنه في الاسم ايضا لا في الفعل وحده وفي هذه الحالة فقط . ذلك أن اضافة الاسم الى هذه الياء نفسها في مثل (داري ، يدي) تسبب كسر آخر الاسم في جميع حالات الاعراب اي أنها تلغي سائر الحركات الاخرى ، ومنها حتى السكون عند الوقف لان الوقف في هذه الحالة يكون على الياء.

يقال : جاء ابي ، ورايت أبي ، ونظرت الى ابي . فلو كان نون (اسعدوني، وانتظروني، وسمعوني) انما أقحموه غيرة على آخر الفعل من الكسر ، لكان حقا عليهم أن يغاروا على آخر الاسم ايضا فيقولوا بنفس الطريقة : جاء ابوني ، ورايت اباني ، ونظرت الى ابيني .. أو ابي (هنا سيان) .

واين هم من الوقاية ونونها في الحديث المشهور: «أو مخرجي هم » ؟ ولو كانت الجملة فعلية لكان نصها «أو يخرجونني هم» ؟ فلماذا يظنون — النحاة —

ان (يخرجون) تحتاج الى وقاية و (مخرجون) لا تحتاج الى وقايـة ؟

جماع امر النحويين فى هذا وامثاله انما هـو ما يسمى بالتعليل بعد الوقوع ، لانهم طبقوا نظريـة « ليس فى الامكان ابدع مما كان » على اللغة فظنـوا كل شىء فيها ينطوي على حكمة بالغة فاجهدوا انفسهم فى التفتيش عنهـا وابرازها للعيان .

على اننا مهما خالفناهم فى هذا او غيره فـان ذلك لا ينقص مـن تقديرنا لهم واكبارنا لجهودهم فى تحري الحقيقة بحسب علمهم ووسعهم فى ذلك الزمان يوم شقـوا طريقا بكرا فى ارض وعرة لم يطرقها احـد قبلهم .

واذا اراد القارىء برهانا ملموسا على مـا قلنا ذكرنا له ان (ني) يظهر ضميرا فى الدارجة السورية (واللبنانية) ملحقا بحرف الجر مثل **فيني** (= **في**) ، وفى اللبنانية ايضا فى مثل : **بني** (= بي) . وعسى القارىء ان يكون قد سمع فيروز ترتـل (مـا أدري شو**بني**) . ونجد برهانا آخر فى الانكليزية التـي ورد فيها هذا الضمير بصورة (**مي**) فى قولهم : aid me ايـدنـي !

والنحويون اعلم اهل الارض بالمفارقات فى قواعد اللغة . ولا يسعنا هنا الا ان نذكرهم بواحدة فقـط من تلك المفارقات هي ان العرب قد عبروا عن الجمع الذكور بصيغة الفردة الانثى حيث قالوا بكامل وعيهـم وسلامة عقلهم : جاءت الرجال !

وان هذه (التقليمة) لتكفي وحدها لنسف كـل تمنطقات النحويين ، وليقولوا فى تبريرها ما يقولون . وهي (تقليمة) بالنسبة الى النحويين انفسهم ، امـا بلغة طريقتنا فى البحث اللغوي فترجمتها ان هذا التعبير اثارة متخلفة من عهد استعمال القاء ضميرا عاما قبل ان تتخصص بالمؤنثة المفـردة .

من اجل ما تقدم نعتقد ان ضمير المتكلم فى «متى اضع العمامة تعرفوني» هو النون ، وان الياء اللاحقة به ليست الا حركة نطقية جعلته (**ني**) فى (صدقوني) كما جعلته (**نا**) فى (علمنا) كما جعلته (**نو**) فى (نساعـد ونؤيـد) ..

واما ضمير الاضافة الى المتكلم فى مثل (كتابي، يدي) فاثله الهمزة (اي) ، وهذه اثلها (آ) .

ابـدال النـون ميمـا :

ابدال الحروف ظاهرة لغويـة تعتور مختلـف الالفاظ فى جميع اللغات ، وقد راينا ان الهمزة ابدلت ياءا وهاءا . وطبيعي ان لا يسلم نون الضمير ايضـا من هذه الملمـة .

ويغلب على ظننا ان كل ميم نجده فى احـد الضمائر العربية مبدل من النون ، ولعل الامر كذلك فى الآريات ايضا بوجه عام .

ففي الفارسية نجد ان (**ما**) تعني : نحن ، واثلها (نا) بدليل ان تولك فى الفارسية (بنظر **ما**) يعني بالدقة (بنظرنا) اي : فى راينـا .

وفى الانكليزية نجـد ان ضمير المتكلم الفرد فى حالة الاضافة هو (**ماي** — my) ، وفى حالـة المفعولية (**مي** — me) . وعبـارة : aid me (= ايدني) التي ذكرناها آنفا ترينا بوضوح كاف ان ضميـر (مي — me) فى الانكليزية هـو نفـس ضمير (ني) فى العربية ، بنفس معنـاه .

وفى الفارسية (**مـن** — man) يعني : انا، واثله فيما نظن (من) بالعربية ومعناه (الذي) للعاقل ، واثلـه (تـن) .

واما (**مان** — man) بالانكليزية فيعنـي الانسان او الرجل . واذا شـاء القارىء ان يظن ان هذه الصيغة الانكليزية متاثلة من الضمائر ايضا فلـن نعارضه فى ذلك ، بل اننا نشجعه عليه ، لاننا مثله لم نسلم من هذا الظن ، ولاسيما ان نفس الكلمة فى العربية (**من**) تعني كما قلنا (الذي) للعاقل ، اي لجنس الانسان ، واستعمالها فى الفارسية بمعنـى (انا) وفى الانكليزية بمعنى (انسان ، رجل) ، ثم فى الفرنسيـة (**مـون** — mon) بمعنى ضمير المتكلم المضاف اليه- يدل على انها كانت ضميرا عاما اطلق علـى مختلف الاشخـاص .

ونرجح ان استعمال الانكليـز (مان — man) بمعنى الانسان والرجل قد بداه العرب فى معربتهـم من قديم عهودهم . يدل على ذلك قول المعجم العربي ان (من) تاتي « نكرة موصوفـة نحـو مررت **بمـن** معجب لك ، كما لو قلت **برجل** معجب لك » !

وقد ثنوها فقالوا : **منان** انتما ، وجمعوها جمع المؤنث السالم فقالوا : **منات** هن ؟ - وجمع المذكـر السالم ، ومنـه البيت :

اتـــوا ليلا فقلـــت **منـــون** انتم ؟
فقالوا الجـــن ، قلت عموا ظلامـــا

وظاهرة ابدال النون ميما فى الضمائر منشؤها المعربة ايضا ، ونجدها فى ضمائر عربية مختلفة مثل **(أنتما)** وأثلها (أنتنا) ، و**(هم)** واثلها (هن) وهكذا ..

يؤيد ذلك لنا ضمير **(هم)** بالذات ، لان العراقيين ينطقونه بفتح الميم وتشديـــده (hummah) مثل نطق ضمير **(هن)** فى الفصحى .

ويؤيد ذلك ايضا علـــى نحو أوضح واقطع ان القوم فى ديـــار الشام ما زالوا ينطقون الميم نونـــا اثيلا فى مثل : اخوكم وبيتكم ، فانهم يقولون : **اخوكن وبيتكـــن** .. وبدلا من ضمير (هم) يقولـــون **(هن)** مـــع فتح النون المشدد . والاصح ان نقول أن الفصحى هي التي تقول (هم) بدلا من (هن) .

التـــاء

لسنا نعرف عن اثل **(تا)** اكثر مما عرفنـــا عـــن اثل (تا) ، فالارجح عندنا انها مثلها من قول الطفل : تاتاتا .. فجزاه الله عن البشريـــة خيـــرا .

وقد استعملوها ضميـــرا عاما كالنون والهمزة. وما زالت موجودة فى العربية منفصلة وبصيغتها الاولى **(تا)** كاسم اشارة ، وتثنيتها **(تان)** ، ومنها : **تـــي** ، تيك ؛ تلك . وقد ابدلت ذالا فنتج منها **ذا ، ذو ، ذي**..

وتوجد كذلك ضميرا متصـــلا مفتوحا فى (فعلت) للمخاطب ، ومضموما فى (فعلت) للمتكلم ، ومكسورا فى (فعلت) للمخاطبة ، وساكنـــا فى (فعلت) للغائبة .. كما توجد فى ضمائر اخرى . وتوجد فى اول الفعـــل المضارع للمخاطبين عمومـــا والغائبات عموما : تكرم (انت ، هي) ، تكرمان (أنتما ، همـــا الغائبتان) ، تكرمـــون ، تكرمـــن .

وانما توجد التاء ضميرا (منفصلا) بصيغتهـــا البدائية الاولى **(تا)** فى الصينية بمعنى هو . وتوجـــد بصيغة **(تـــو** — tu) بمعنى انت ، فى الفارسيـــة والفرنسيـــة والايطالية جميعا . وهي تنطق **(ذو** — thu) بـــالسكســـونيـــة ، و **(ذاو** — thou) بالانكليزيـــة ، بنفس المعنـــى .

تركيب الضمائر

المشهور أن الالفاظ السامية منفردة ، لا مركبة كالالفاظ الآريـــة . اما ما ورد مركبا — اي منحوتـــا بتعبير النحويين — من الالفاظ التطورية الجاهلية مثل عبشمي وحضرمي ، فقليل جدا . واما الالفاظ المركبة الاخرى مثل : بسمل وحوقل ودمعز (قال ادام اللـــه عزك) وأمثالها فاسلامية نحتها القوم بدافع الحاجـــة فهي ليست تطورية بالمعنى الجاهلي العفوي وانما هي تطويريـــة اشبه بالعمل الذي تضطلع به المجامع الآن من وضع الالفاظ للمعاني الجديدة استجابة للحاجـــة الحضاريـــة المعاصـــرة .

وخلو العربية من التركيب يعد عند علماء اللغة من اهم خصائصها وخصائص بناتهـــا الساميـــات المميزة لها عن الآريات التي دابت على تركيب اللفظة الواحـــدةمن لفظتيـــن او اكثـــر .

لكننا نكتشف التركيب اللغوي فى العربية قديما، اثيلا جدا .. فى الضمائـــر .

بل ان معظم الضمائر العربية مركب مـــــن عنصرين او اكثر . حتـــى (هو) مركب من (او ، آ) ، و(هي) من (اي ، آ) ، بدليل ان العرب ينطقونهما اليوم بفتح الواو والياء مشددين ، كما كان ينطقها بعـــض القبائل العربية الجاهلية ايضا ، مما يدل على اثالـــة هذا النطق .. هذا بالاضافة الى فتح الواو والياء فى الفصحـــى بدون تشديـــد .

أنـــت :

ان النموذج المثالي للضمير المركب هو **(أنت)** ، لانه يجمع الضمائر العنصريـــة الثلاثة (آ ، نا ، تا) بصورتها الاولى دون ابدال احد حروفها ، ودون زيادة مثل (انتما) او نقصان مثل (أنا) .

ونجد هذه العناصر الثلاثة بنفس هذا الترتيب فى الفرنسيـــة : **(أنت** — ent) ضميرا متصـــلا بالفعل المضارع بمعنـــى (هم) فى مثل : marchent يمشـــــون) . ونجـــده فى الفـــارسيـــــة بصيغة **(اند)** بالمعنى الفرنسي تقريبا فى مثل (بلعيده انـــد) : بلعوا .

نشـــوء التركيـــب :

لدينا الآن سؤال : كيف ، ولماذا وقع التركيب فى الضمائـــر ؟

نحسب الاجابة على هذا السؤال ممكنة ومقنعة الى حد غيـــر قليـــل .

والذي نعتقده أن الضمائر العنصرية الثلاثة الاولى ــ آ ، نا ، تا ــ لم تظهر الى الوجود في وقت واحد ولا في بقعة واحدة ، وانما ولد بعضها قبل بعض في اماكن مختلفة من المعربة . فلما التقى الفريق الذي استعمل الهمزة بالفريق الذي استعمل النون مثلا جرى خلط الاثنين فنجم منهما ضمير **(آ ــ نا)** بمد الهمزة والنون اول الامر . ومن عجب أن هذه الصيغة البدائية الاولى ما زالت حية تنطق في جنوبي العراق بمعنى ضمير المتكلم : انا .. فصدق أو لا تصدق انهم ينطقونها **(آنا)** ! ولا ندري من اي القبائل العربية القدمى تخلف هذا النطق . وأما في اواسط العراق فقد تطور هذا الضمير قليلا فصار ينطق بكسر النون ولو أن الفتحة على الهمزة ما تزال مديدة ، اي : **(آني)** بلغة بغداد وما حواليها . وأما في الشمال اي الموصل وما حواليها فينطقونها بالصيغة الحديثة اي القرشية (أنا) كما ينطقها معظم العرب اليوم في الدارجات .

ومما يدل على أن هذا الضمير المركب (آ ــ نا) كان ضميرا عاما يستعمل في مختلف المعاني انه يوجد في الفارسية بصيغة **(آن)** بمعنى (هو) لغير العاقل، أو (ذلك) للعاقل وغيره .

كذلك نجد آثار (انا) في ضمائر عربية مختلفة المعاني : انت ، انتما ، انتم ، انتن .

ويبدو ان قبيلا ثالثا ممن يستعملون التاء ضميرا عاما قد خالط الناطقين بضمير (آنا) فظهر من احتكاكهم الضمير (آناتا) . ودابت الالسنة على صقل هذه التركيبة وهندمتها حتى اصبحت **(أنت)** ! وقد سبق ان اتضح لنا ان هذا الضمير هو الآخر قد استعمل بمعان مختلفة ، اي ضميرا عاما .

وبعد اختلاطات أخرى كثيرة ومعقدة نشأت بقية الضمائر ، ولاسيما ضمائر التثنية والجمع : انتما ، انتم ، انتن ، هما ، هم ، هن .

بواعث التركيب :

ويلوح أن عدة عوامل قد تظافرت على تركيب الضمائر اي خلطها عند اختلاط الناطقين بها . ولعل اهم هذه العوامل هو اكثرها بداهة وبساطة ، وهو عدم فهم هذا الفريق لغة ذاك عند اللقاء ، مع رغبتهما في التخاطب : الفهم والافهام . فاذا كان هؤلاء يقولون (آ) واولئك يقولون (نا) وقد تعايش القبيلان في صعيد واحد ، فالاصوب والاضمن ــ حين يخاطب أحدهم شخصا لا يعرف من اي القبيلين هو ، أو حين يخاطب شخصين احدهما من هذا القبيل والآخر من ذلك ــ ان يقول **(آ ــ نا)** ، لكي يفهم المخاطب مراده اية كانت لغته .

ولا يحسبن القارىء أن تأويلنا هذا ضرب من (شطحات) خيال مغامر ، فان لدينا على هذا القول لبرهانا من صميم واقعنا العربي المعاصر ! وذلك ان لدى العرب ــ في هذا القرن العشرين ــ مشكلة لغوية مماثلة .. لم يجدوا لحلها وسيلة انجع من تلك الوسيلة البدائية العتيقة .. الاثيلة . تلك هي رغبتهم في التفاهم على ما هم فيه مختلفون من اسماء الاشهر الميلادية مثلا . فأهل المعربة والهلال الخصيب يذكرون هذه الاشهر باسمائها العربية القديمة ــ البابلية : كانون الثاني ، شباط ، آذار ، نيسان ..

أما عرب الشمال الافريقي ــ من القناة الى المحيط ــ فيذكرونها بأسماء اوربية .

فلما اختلط الفريقان (ثقافيا) على صعيد واحد ــ من المطبوعات ــ صارت المجلات مثلا تسجل تاريخ صدور كل عدد منها باللغتين ، فتقول : شهر **(نيسان ــ ابريل)** .. لكي يفهم عنها قراء الطائفتين . وكذلك صارت تفعل الاذاعات العربية ، ولاسيما الصادر منها عن عواصم اجنبية .. بالضبط كما قال الاعربون الاوائل **(آ ــ نا)** ليفهم عنهم المتكلمون بالضميرين !

ولما كانت الاقطار العربية في الشمال الافريقي تختلف فيما بينها في نطق اسماء الاشهر الميلادية الاوربية ايضا فقد اضطررنا ــ شخصيا ــ الى ان نفعل ما هو ادهى من ذلك ، يوم ذكرنا اسم الشهر في احدى المناسبات بثلاث لغات : **(غشت ــ آب ــ اغسطس)** ! (*) ..

فهل يحق لنا ــ او يحق لي شخصيا على الاقل ــ بعد أن اقترفت هذه التركيبة ، ان استغرب تركيبة : **آ ــ نا ــ تا** (انت) ؟

ولعل من اسباب تركيب الضمائر ايضا أن بعضها استعمل بمعنى **غير معنى الضمير** ، كالهمزة

(*) اللسان العربي ــ عدد 4 ، حاشية ص 8 .

التي استعملوها كما قلنا للتنبيه والنداء والاشارة . وعلى هذا يحتمل ان الهمزة في (آ ــ نا) كانت تعني التنبيه فاضيف اليها النون ليؤدي معنى الضمير ، كما هي الحال في تركيبة : هاذا (هذا) ، حيث تؤدي الهاء معنى التنبيه و (ذا) معنى الاشارة .

كذلك يجوز أن نضيف الى السببين الآنفين سببا ثالثا لتركيب الضمائر هو **(التكرار)** للتعبير عن **الجمع** ؛ كما كنا ذكرنا عند حديثنا عن ضمير (نحن) الذي قلنا انه مركب من (انا ــ انا) وربما من (نا ــ نا)، ثم دخلت الحاء بينهما تنغيما .. (في المقال السابق) .

وقد يكون الغرض من التكرار هو **التاكيد** كالذي نجده صريحا في اداة النداء **(أيا)** التي هي في الواقع (أ ، يا) ، وكل من جزأيها يغني وحده غناء الآخر ، ثم صار التخصص بمعنى القريب والبعيد .

وقد ادى التركيب احيانا الى تكرار نفس الضمير **بمعان مختلفة** مثل **(اياي)** وهي تركيبة من : اي ؛ آ ، يا .. وكلها اثلها : آ .

ونعيد الآن ما سبق ان نوهنا به من اننا لا نقصد ان ثلاث طوائف من البشر كل منها يتكلم باحد الضمائر قد اجتمعت في مكان واحد في وقت واحد فالتقت الضمائر العنصرية البسيطة في ضمائر مركبة ، لكن الاغلب ان ذلك قد جرى بالتعاقب في اكثر من مكان . وان استعراض ضمير مطول مثل : **انتما** (ا ، ن ، تو ، ما) ليساعدنا على ادراك هذه الحقيقة . ولعل النصف الاول من هذا الضمير (ان) قد نشأ على حدة في مكان، و (ــ تما) قد نشأ على حدة في مكان آخر ، بدليل وجوده وحده في مثل (نظر **تما**) ، ولعل النون قد ابدل ميما في مكان ثالث .. هذا عدا الاماكن الاخرى التي غيرت حركات (آ ، نا ، تا ، نا) حتى كان الحاصل النهائي (انتما) .

تحليل الضمائر

فما دامت الضمائر مركبة فان خير ما نفعله بها لنتمكن من حل طلاسمها والنفاذ الى اسرارها هو أن نخضعها للتحليل فنردها الى عناصرها البسيطة ، البدائية الثلاثة ، التي لا تقبل التجزئة لان كلا منها لا يزيد في النطق على مقطع واحد : آ ، نا ، تا .

واليك تحليل الضمائر **المنفصلة** :

أنا = آ + نا .
نحن = **نا** + ح (زائدة) + نو (اثلها : **نا**) .
انت = آ + ن (**نا**) + **تا** .
انت = آ + ن (**نا**) + **تي** (**تا**) .
انتما = آ + ن (**نا**) + تو (**تا**) + ما (**نا**) .
انتم = آ + ن (**نا**) + تو (**تا**) + م (ما ؛ **نا**) .
انتن = آ + ن (**نا**) تو (**تا**) + (**نا**) .
هو = او (آ) + آ .
هي = اي (آ) + آ .
هما = او (آ) + ما (**نا**) .
هم = او (آ) + م (ما ، **نا**) .
هن = او (آ) + **نا** .

واما الضمائر **المتصلة** فهكذا تحليلها في الفعل **الماضي** :

ذهبت (أنا) = ذهب + تو (**تا**) .
ذهبنا = ذهب + **نا** .
ذهبت (المخاطب) = ذهب + **تا** .
ذهبت (المخاطبة) = ذهب + تي (**تا**) .
ذهبتما = ذهب + تو (**تا**) + ما (**نا**) .
ذهبتم = ذهب + تو (**تا**) + م (ن ، **نا**) .
ذهبتن = ذهب + تو (**تا**) + **نا** .
ذهب = ذهب + آ .
ذهبا = ذهب + (آ) .
ذهبوا = ذهب + او (آ) .
ذهبت (هي) = ذهب + آ + ت (**تا**) .
ذهبتا = ذهب + آ + **تا** .
ذهبن = ذهب + **نا** .

واما في الفعل **المضارع** فهكذا تحليلها :

أفعل (أنا) = آ + فعل + او (آ) .
نفعل = **نا** + فعل + او (آ) .
تفعل (أنت ، هي) = **تا** + فعل + او (آ) .
تفعلين = **تا** + فعل + اي (آ) + **نا** .
تفعلان (انتما، هما) = **تا** + فعل + آ + ني(**نا**)
تفعلون = **تا** + فعل + او (آ) + (**نا**) .
تفعلن = **تا** + فعل + **نا** .
يفعل = يا (آ) + فعل + او (آ) .
يفعلان = يا (آ) + فعل + (آ) + ني (**نا**) .
يفعلون = يا (آ) + فعل + او (آ) + **نا** .
يفعلن = يا (آ) + فعل + **نا** .

اما افعال الامر فتسبقها الهمزة دائما ان كان الامر مباشرا اي موجها الى المخاطب ، واما امر

المتكلم والغائب بواسطة اللام فخارج عن موضوعنا الآن :

افعل (انت) = اي (آ) + فعل .
افعلـي = اي (آ) + فعل + اي (آ) .
افعلا = اي (آ) + فعل + آ .
افعلوا = اي (آ) + فعل + او (آ) .
افعلـن = اي (آ) + فعل + نـا .

ولئن كانت همزة الامر مكسورة هنا فهي مضمومة في مثل : انظر ، انظري . وعندئذ يكون تحليلها : انظر = او (آ) + نظر ..الخ

وقد جزموا آخر فعل الامر فلم تظهر عليه حركة، من باب الاستعجال رغبة منهم في سرعة انفاذ الامر ، ربما منذ عهود الغاب بأخطارها ووحشيتها . فمن اجل ذلك حذف النون من أواخر صيغ المضارع المنتهية به مثل : تفعلين ، تفعلان ، تفعلون . فبدلا من القول (اهربين ، اسمعان ، اضربون) قالوا : (اهربي ، اسمعا ، اضربوا) ، استعجالا او عنفا . ولعل النون كان موجودا في هذه الافعال اول الامر ، ثم زال . وأما صيغة (تفعل انت) فقد كان تخفيفها عند الامر بحذف الضمة من آخرها فحسب ، كما يجري عليها عند الوقف ايضا .

وأما صيغة (افعلن انتن) فلم يحذف نونها لكيلا تلتبس الصيغة بالمفرد المذكر (افعل انت) ، وان كان عامل تجنب اللبس لم ينجع في مواطن اخرى . لكن ربما كانت بعض المشاكل الغابية قد نجمت من مثل هذا الالتباس فاضطروا الى الاحتفاظ بالنون .

وأما ابقاء النون في صيغة امر المخاطب (افعلن) فيظهر كأنه مناقض لهذه القاعدة ، الا ان قليلا من التمعن يرينا ان التأكيد ، لا الاستعجال ، هو المقصود في هذه الصيغة . فمن اجل هذا اسماه النحويون نون التوكيد . وقد جاء هذا التوكيد على درجتين : خفيفة بتسكين نون (افعلن) ، وشديدة بتشديده .

وأما الضمائر **المتصلة بالاسماء** اضافة وبالحروف جرا فيمكن تحليلها على هذا المنوال :

عندي = عند + اي (آ) .
عندنا = عند + نـا .
عندك = عند + آ + ك (اثلها : تـا ، بدليل ان التاء ما زالت في الفارسية تقوم مقام هذا الكاف مثل : كتابت = كتابك .. وبدليل استعمال التاء عند العرب انفسهم في الفعل مقابل الكاف في الاسم مثل : ذهبت ، مقابل : ذهابك ، وذهبتما مقابل ذهابكما ..)
عندكما = عند + كو (تو ، تا) + ما (نا) ..الخ
وقد تتشابه الضمائر في اول الفعل كالياء في : يفعل ، يفعلان ، يفعلون ، يفعلن .. وكالتاء في : تفعل (انت ، هي) ، تفعلان (انتما ، هما) ، تفعلون ، تفعلن.

ومهما يكن فان النحاة لم يعتبروها ضمائر متصلة ، ولا سيما انهم وجدوا لحسن حظهم ضمائر غير متشابهة في أواخر الافعال ، كل واحد منها له لفظ خاص ومدلول معين . لكن جابهتهم مشكلة فقدان مثل هذه الضمائر المتميزة في بعض الافعال مثل : افعل (انا) ، تفعل (انت ، هي) ، فعل (هو) .. فكان منهم أن حلوا المشكلة بقولهم ان فاعل الفعل ضمير **(مستتر)** تقديره : انا ، او انت ، او هو ، او هي .. ولم يخطر لهم ، والحق معهم في ذلك الزمان ، ان الهمزة والتاء والياء والنون في أول الفعل ، وان الفتحة والضمة والكسرة في آخره ، ان هي الا بقايا متنكرة ، لكن غير مستترة ، تمثل ضمائر مندرسة ، كقطعة من فلك يجدونها في كهف قبتاريخي ليستدلوا بها على آدمي كهفي قديم .

تخصص الضمائر

لا شك أن الاعرب الغابي قد خالجه سرور كثير يوم اكتشف أو تعلم (آ) ، فصار يستعملها للتعبير عن شؤون مختلفة ماكان يعرف سابقا كيف يعبر عنها. ومثل ذلك أو ما يقاربه يمكن ان يقال عن كل من **(نـا)** و **(تا)** ، لاننا نعتقد كما قلنا ان كل رهط من أهل المعربة كان أول الامر يستعمل واحدا من هذه الضمائر الثلاثة اهتدى اليه حسب ظروفه الزمكانية .

ولعل فرح كل رهط منهم بكلمته السحرية تلك ، التي فتحت له عالما جديدا شائقا من التفاهم والتكاشف ما كان يقل عن فرح الانسان الحديث عندما اكتشف التلفون !

غير انه ــ الانسان القديم ــ اضطر الى استعمال الواحد الذي يملكه من هذه الضمائر الثلاثة الجذرية بمعنى الضمير العام كالذي أوضحناه ، أي للدلالة على كل الاشخاص والاشياء واسماء الاشارة والموصولات وادوات النداء والاستفهام (أ ؟) والايجاب (اي) .. وشؤون اخرى . وسبب ذلك طبعا هو فقره اللغوي المدقع قبل اهتدائه الى الفاظ اخرى يستعمل كل واحد منها لواحد من تلك المعاني الكثيرة .. اشبه

بالراعي الذي يملك من دنياه عصاه يحمل عليها متاعه عند المسير ، ويتوكأ عليها عند التصعيد فى الآكام ، ويركزها فى الارض ليستظل تحتها بعباءته عند الهاجرة، ويهش بها على غنمه .. وله فيها مآرب اخرى .

واذا عدنا الى المقارنة مع انساننا المعاصر قلنا ان عربي الغابة استعمل الضمير العام شبيها باستعمال الانسان الحديث تلفونه السحري الذي فتح له افقا رائعا من التواصل والتفاهم حتى ان اكثر الذين حصلوا على جهاز التلفون لاول مرة ، ان لم نقل كلهم ، جعلوا يحدثون به هذا وذاك من اقاربهم واصدقائهم ومعارفهم لا لضرورة ولكن لمجرد التمتع بهذه البدعة الحضارية (اللغوية) ! ومن الطبيعي ان هذا الانسان الحديث ، الساحر ، المسحور ، استعمل التلفون اول الامر لمختلف انواع مخابراته ، القريب منها والبعيد ، قبل اهتدائه الى المحضار (الجهاز الذي يخاطب به الرئيس مرؤوسيه وهم فى حجراتهم كأنما يستحضرهم به) ، واللاسلكي والمشواف (التليفزيون) ، والمحذار (الرادار) ، التي اصبح يستخدم كلا منها للغرض الملائم ، كما استخدم جده المعربي كلمة (آ) لمختلف الاغراض قبل ان يكتشف : انا ، انت ، تيك ، ذاك ..

وتخصص الضمائر من احسن الامثلة للتخصص التطوري فى اللغة ان لم يكن احسنها . تستعمل كلمة فى معنى عام ، ثم يظهر لها مرادف فيتخصص احد المترادفين بجزء من ذلك المعنى العام . وكلما ظهر مرادف آخر تخصص بجزء منه . فاذا تمت معاني الاجزاء كلها وظهر مرادف جديد ، لم يجد له معنى سائبا يتخصص به فيبقى مرادفا ، وما اكثر الامثلة على ذلك . ومن التخصص مثلا : تيك وتلك ، فهما صيغتان مختلفتان مبنى متفقتان معنى ، لكن القوم مع انهم قد استوفوا اسماء الاشارة فخصوا كل واحد منها بلفظة تدل عليه ولم تعد بهم حاجة الى آخر ، خصصوا من باب الترف اللغوي صيغة **(تلك)** بالانثى البعيدة و**(تيك)** بالانثى المتوسطة .. على قول النحاة .

ان اهم العوامل التي ساعدت على تكاثر الضمائر وتنوع صيغها هو **(الاختلاط)** الذي افضى الى التركيب كالذي قلنا .

وثمة عامل آخر هو **(الابدال)** اي تغيير بعض حروف الضمير ، مثل ضمير (هن) الذي قلنا انهم ابدلوا نونه ميما فصار (هم) وتخصص كل منهما بمعنى .

وثمة عامل ثالث هو **اختلاف نطق الحركات** فتحا وضما وكسرا كما تقدم بنا ، فتخصصت كل حركة بضمير ، وابسط مثال على ذلك واوضحه التاء فى : فعلت بالفتح (انت المخاطب) ، وفعلت بالضم (أنا) وفعلت بالكسر (أنت المخاطبة) ، وفعلت بالتسكين (هي)

بل ان مجرد الاختلاف فى اطالة الحركة او تقصيرها قد يسبب احداث ضمير جديد ، مثل : سمع وسمعا ، ومثل : ذهبن وذهبنا ، ومثل : يذهب ويذهبوا (فى حالة الجزم) .

تباين الضمائر

على ان الجماعات العربية لم تتفق قط فى تخصيص الضمائر وتحديد وظيفة كل صيغة منها ، الا فى الفصحى ، اي بعد جمع مفردات اللغة وتثبيتها فى المعاجم . واما فى الدارجات فلم تتفق حتى هذه الساعة

ففي المغرب يقولون (نفعل) وهم يقصدون (افعل) . نعم انهم يقولون **(أنا نبغي)** اى : انا اريد . فاما اذا ارادوا جمع المتكلم قالوا : **نبغيو** ، نقولو ،**نمشيو**.

وفى سوريا وغيرها يقولون **(انتي)** وهم يقصدون المخاطب الذكر ، هذا بالاضافة الى قولهم **(هن)** بمعنى (هم) . والعرب عموما ما عادوا يفرقون بين التأنيث والتذكير فى هذا الضمير ، غير انهم على عكس السوريين يقولون **(هم)** بمعنى **(هن)** .

واما المصريون فيستعملون الميم بدل الواو فى مثل : راحوا ، اكتبوا ، ناموا ... ينطقونها : **راحم ، اكتبم ، نامم** .

واما العراقيون فهم على العكس من ذلك يستعملون الواو بدل الميم فى مثل : انتم ، رحتم ، جيتم .. ينطقونها : **انتو ، رحتوا ، جيتوا** . كذلك يقول العراقيون (تسمعا) بمعنى **(تسمعه)** بلغة بغداد ، وبمعنى **(تسمعها)** بلغة الموصل ، وهذه الاخيرة لغة بر الشام .

وجميع العرب فيما يظهر صاروا يعاملون المثنى معاملة الجمع الآن ، فى مثل : قالا ، يامران ، اسمعا .. فينطقونها : قالوا ، يأمرون ، اسمعوا .

ولابد ان امثال هذه الاختلافات . والتطويرات كانت اكثر تنوعا واكبر عددا فى غابر الزمان ، قبل ظهور الفصحى المشتركة .

وبسبب كثرة الهجرات القديمة من المعربة الى الاراضي المجاورة وما يليها ، من مختلف القبائل ،

وفى مختلف الظروف والاوقات ، كان من الطبيعي أن نجد الضمائر العربية فى الاعجميات ايضا مختلفة المعاني احيانا ومختلفة المباني احيانا . ويتعبير آخر ان كلا من الضمائر الآرية يمثل احدى القبائل العربية القديمة ، كما ان اختلاف العرب اليوم فى مباني الضمائر أو معانيها يعني ان كلا منها يمثل احدى القبائل العربية القديمة (باستثناء ما طرأ عليها بعد ذلك من تطور طبعا) .

ولنأخذ اهم الضمائر واكملها من الناحية التركيبية لانه المركب المشترك الاصغر ، وهو **(أنت)** فهو فى العربية — الباقية — ضمير المخاطب الفرد الذكر . وهذا الضمير رأيناه يطالعنا فى الفرنسية بنصه وبنفس ترتيب حروفه بصيغة (ent -) ضميرا متصلا بالمضارع للجمع مثل aident : يؤيدون ، كما رأيناه فى الفارسية بصيغة **(اند)** وهو يستعمل بالمعنى الفرنسي فى حالتي الماضي والمضارع معا مثل : مكيدند (مكوا ، والمك هو المص) ، وميمكند (يمكون ، يمصون) . وتكون همزة الضمير (اند) اظهر فى مثل صيغة : مكيده **اند** (مكوا ، مصوا ، فى زمن مضى) .

كذلك يختلف معنى ضمير **(هو)** فى الانكليزية عنه فى العربية . فقد وجدناه فيها بنفس اللفظ (هو — who) لكن بمعنى : الذي . كذلك صيغة **(هي** — he) التي قلنا انها تعني فى الانكليزية (هو) . وسوف يمر بنا الكثير من النماذج المماثلة حين نستعرض الضمائر فى العربية وبعض الآريات تحت عنوان (معان اخرى) ، ونطلع على ما بينها من توافق وتباين.

توحيد الضمائر

وعندما ظهر الاسلام كانت اللغة العربية تجتاز مرحلة تطورية معينة لها خطورة خاصة ، حيث كان الشعر السائر والامثال المتداولة المتبادلة والخلطة فى الاسواق ونحوها قد اخذت تبلور لغة **(فصحى)** مشتركة بين مختلف القبائل والبطون ، غير لغة التخاطب المحلي أو القبلي . وكانت تلك الفصحى تتألف بوجه عام من لغات بعض القبائل التي كانوا يعدونها افصح العرب من سعد وهذيل وتميم .. وكانت تغلب عليها — اي الفصحى — مسحة قرشية بوجه عام ، لاجتماع العرب سنويا بمكة فى (معرض دولي) يشارك فيه العرب من كل صوب باسم (سوق عكاظ) . وقل من المعارض الدولية اليوم ما يعنى بالآداب وفنونها عناية سوق عكاظ بها . فقد كان القوم يتبادلون فيها الى جانب عروض التجارة ما لا نظير له اليوم فى اية عاصمة كبرى من (عروض) الادب شعرا وخطبا ومواعظ ومفاخرات ومناجزات ، وكلما لديهم من افانين منتجات الكلمة فى الادب مع مختلف شؤون السياسة والاجتماع والدين .

وقد كان من الاسلام ان اضفى على تلك (الفصحى) العربية صبغة رسمية لظهوره فى بؤرة اشعاعها (مكة) ولنزول القرآن بها على الاخص ، فحفظه المسلمون فى جميع انحاء الارض العربية ، وتعلمه حتى الصبيان الذين استقامت السنتهم عليه الى ان شبوا وشابوا . ثم جاءت العناية باللغة جزءا من العناية بالدين فتناولوها جمعا وتدوينا ودرسا وتحقيقا وتنسيقا وتقنين قواعد صرف ونحو .. حتى ثبتت القواعد والالفاظ ومنها الضمائر على النحو الذي وعته لنا المعاجم وكتب اللغة .

وقد ادى ذلك الى امرين : احدهما وقف حركة ذلك التطور اللغوي الجاهلي العفوي واحلال تطور ثقافي حضاري فى محله اقرب الى العمدية والتناسق. والثاني أن الجماعين والمدونين اللغويين انفوا من كل ما لم يعدوه فصيحا من لغات القوم الكثيرة ولاسيما لغات من سموهم النبط ونحوهم ، وبذلك توحدت اللغة وثبتت .. فكان ذلك خسارة كبرى لمدارس اللغة وبركة كبرى للثقافة والادب .

صيغ المجهول

وكان من اشكال الاختصاص الكثيرة المتنوعة ان بعض الضمائر ، المتصلة فى اوائل الافعال ، قد تخصصت بمعنى الفعل المبني للمجهول . ويلوح لنا ان أول ظهور صيغ المجهولية كان فى الفعل المضارع، فقد قال بعضهم مثلا : أرى ، نسمع ، يضربون — بفتح أول الفعل ، ونطقها آخرون بضمه ، فتخصصت الصورة الثانية مع الزمن بمعنى المجهولية .

أما نطق بعض الفتحات ضمات فليس بالمستغرب فى العصور الاولى ما دام بعض العرب يمارسه حتى اليوم . فالسوريون وغيرهم من بعض العرب ينطقون اسم(بغداد) بضم الباء بدلا من فتحها . بل ان بعض العامة واشباه العامة من العراقيين انفسهم ينطقون اسم وطنهم (العراق) بضم العين !

وبعد ان استقر معنى المجهولية لهذه الصيغة الجديدة فى الفعل المضارع صيغ منها الفعل الماضي على طريقة تصريف الافعال المبنية للمعلوم ، فقالوا

للمجهول(فعل) بضم الفاء من قولهم (يفعل) بضم الياء .. بينما نعتقد فيما يخص صيغ المعلوم ان صيغة الفعل الماضي اسبق الى الظهور من صيغ المضارع والامر .. وليس هنا مكان تعليل ذلك .

ونكتفي بالذي قلنا عن صيغة المجهول الآن تاركين الصيغ الاشتقاقية الاخرى : انفعل ، تفاعل ، تفعل ، افتعل .. الى فطنة القارىء .

حركات الاعراب

الزائد اللغوي :

يظهر أن كل نوع من انواع التطور يترك وراءه مخلفات من الرواسب . ومن نماذج رواسب التطور في عالم الاحياء ارجل صغيرة خفية لثعبان البواة تحت الجلد لا تبين ولا تعمل ، وغلاصم للانسان يقول التطوريون انها من رواسب مرحلة الحياة المائية .

وما اكثر الرواسب في حياة البشر الاجتماعية في كل بيئة متطورة مما يسمى بالتقاليد والعرف والعادات تخلفت من آثار سابقة ، اشبه ببقايا الماء في الحفر يتركها وراءه السيل الذاهب .

واللغة ــ كائنا حيا متطورا ــ لا تشذ في هذا الباب عما يجري في عالم الاحيائيات وعالم الاجتماعيات، ولاسيما ان اللغة كيان **حي** من جهة **واجتماعي** من جهة.

ومن الرواسب اللغوية زوائد متخلفة من عهد تطوري كانت لها فيه وظيفتها ، ثم تقلبت الاحوال فتقدت وظيفتها او اعتاضت عنها بغيرها . واشهر نموذج لهذا في العربية (**ما**) الزائدة بعد (**اذا**) . وهي تكون زائدة كذلك عند وقوعها بعد : حين ، وكي ، وحيث ، وغيرها ـ لان معانيها لا تتغير اذا اضيفت اليها (ما) فصارت : حينما ، كيما ، حيثما ..

واذا اعتبرنا اصل وظيفة (ما) هو الموصولية بمعنى (الذي) لغير العاقل ، فهي في هذه الشواهد قد فقدت هذا المعنى تماما وبقيت بلا معنى . على أنها في شواهد اخرى قد استعاضت عن معناها المفقود بمعان جديدة في مثل : لما ، طالما ، ما دام ..

وهذا عين ما يجري في عالم الاحياء ، فبعض الرواسب التطورية ، اي الاعضاء الاثرية ، تفقد عملها تماما كارجل ثعبان البواة ، وبعضها تستبدل وظيفة جديدة بوظيفتها المفقودة ، كالموظف المحال على التقاعد يفقد عمله المألوف فيجد لنفسه عملا آخر يلائمه في ظروفه الجديدة ليملأ به ايامه ، ومثل ذلك ما فعلته غلاصم الانسان اذ اصبحت تحتكر الجراثيم وتكافحها لتخفيف وطأتها عن الجسم .

شين النفي :

ولعل احسن نموذج للزائد اللغوي المعاصر ، في الدارجات العربية ، هو حرف الشين الملازم للنفي في الجملة المغربية والمصرية : مش ناسي ، ما اعرفشي..

واثل هذا الشين هو كلمة (**شيء**) لحقت أولا بالفعل المتعدي المنفي لغرض التأكيد فقالوا : ما اعرف**شي** ، ما قال **شي** ، ما اكلوا **شي** ..

وهذا ما لا يزال سائر العرب يقولونه ولكنهم يقصدون معنى (شيء) حقيقة اي : لا اعرف شيئا ، ما قال شيئا ، ما اكلوا شيئا ..

اما في المغربية والمصرية فالمقصود بتلك التعابير وامثالها مجرد النفي اي : لا اعرف ، ما قال ، ما اكلوا . وبعبارة اخرى ان هذا الشين قد فقد معناه تماما في الدارجتين المصرية والمغربية واصبح (**زائدا لغويا**) .

فكيف حدث هذا ؟ الواضح ان كثرة استعمال كلمة (شيء) مع الفعل المتعدي المنفي لغرض التأكيد جعلتها تلتصق به وتعم كل تعابير النفي ولو لم يقصد بها التوكيد .. ثم تعم ثانية فتشمل حتى الفعل اللازم الذي لا يجوز ذكر (شيء) معه بصفته مفعولا به ، مثل : ما جاشي ، مايروحشي ، ما يمشيش ، ما يصحش .. ثم تعم مرة ثالثة لتشمل جميع حالات النفي حتى في التعابير التي لا فعل فيها ، وعندئذ تلتصق (شي) بالحروف و غيرها في التعابير غير الفعلية : **مش** انا ، **مش** عارف ، ما عندناش ، مالوش دعوة . وتختلف استعمالات الشين قليلا في المغربية عنها في المصرية ، وليس هنا مجال التوسع في ذلك .

وبعد ان فقدت كلمة (شيء) معناها على هذا الوجه اضطروا ــ الناطقون بالشين ــ الى استخدام كلمة اخرى تقوم مقامها في اللغة لتؤدي معناها في مختلف مطالب الحياة فوقع اختيارهم على كلمة (حاجة) بمعنى الشيء . فاذا قال الحجازي : ما شاف شي ، قال المصري ما شافشي حاجة (= ما شاف+ **شي + حاجة**) .

واذا كان الشين قد سميناه (الزائد اللغوي) فان كلمة (حاجة) يمكننا تسميتها **(العوض اللغوي)** وهو الكلمة التي تحل محل كلمة فقدت وظيفتها . وهذا العوض اللغوي ان لم يكن مرادفا لسلفه فلابد من سلبمعناه واعطائهمعنى سلفه، وعندئذ ينبغي أن يحل محله بدوره عوض لغوي آخر ليؤدي معناه السليب .

على ان (شي) تظهر في الدارجة السورية في مثل قولهم : اعطيني **شي** كتاب ادبي ، أو : تعرف **شي** طبيب اسنان ؟ ولعل القارىء قد سمع نصري شمس الدين يغني : « لو بتحاكيني **شي** مرة يمكن تحييني»! والظاهر أن (شي) في هذه التعابير تعمل كاداة تنكير بمعنى (واحد) ، اي : لو بتحاكيني مرة (واحده) .. اي ان (شي) هنا لم تتعطل عن العمل بل ابدلت به غيره .

وفي المغرب (كل شي) — وينطقونها كلمة واحدة **(كلشي)** — تعني : كله ، أو كلهم ، او كلنا .. فاذا ارادوا ان يقولوا (كلنا نريد) قالوا : **كلشي** نبغيو .

وفي العراق يوجد الشين في **(كلش)** — بكسر اللام مشددا — بمعنى (جدا) ، في مثل : **كلش** زين : جيد جدا .

الضمير الزائد :

اظننا بعد هذا التمهيد المطنب نستطيع أن نقتحم الموضوع الوعر الذي نريد اليه ، فنقول أن ما جرى على كلمة (شيء) قد جرى ما يشبهه على الهمزة الضمير . لقد تعددت وظائف الهمزة كالذي رأينا وكثر التوكؤ عليها في الكلام فاضافوها الى الافعال في أولها أو في آخرها ، حتى لقد اضيفت الى الفعل الواحد في بعض الحالات في اوله وفي آخره معا مثل : اذهبا (= **اي** + ذهب + آ) و : افعلي (= **اي** + فعل + **اي**) .. بل لقد اضافوها حتى الى نفسها في مثل (أيا) للنداء (= آ + آ) .. وفي مثل اياي (= **اي** + آ + آ) ! ..

فالذي نعتقده ان حركات الاعراب ليست الا رواسب تطورية من الهمزة في مختلف حالاتها النطقية : آ ، **او** ، **اي** .

واليك هذه التعابير نوردها على طريقة النحويين: جاء الرجل ، ورايت الرجل ، ونظرت الى الرجل . فاذا نحن حللنا كلمة الرجل وجدنا انها في الحالة الاولى (= الرجل + **او**) ، وفي الحالة الثانية (= الرجل + آ) ، وفي الحالة الثالثة (الرجل + **اي**) .

واذا شق على القارىء العزيز هذا التخريج كان علينا ان نذكره بالافعال التي سبق أن حللناها على هذا الوجه :

افعلوا = اي + فعل + **او** .
افعلا = اي + فعل + آ .
افعلي = اي + فعل + **اي** .

فالضمائر هنا من الوضوح بحيث لا يمكن انكارها ، او اغفالها .

والضمة التي تلحق بالمبتدا أو الخبر أو الفاعل .. لا تختلف عن الضمة اللاحقة بالفعل . وليس اعون لنا من التحليل في ايضاح الامر ، فلنعد اليه لننظر من خلاله الى الحركات الاعرابية الثلاث في العبارات التالية في الاسم والفعل معا :

الضمة ، في مثل : ينتصر الحق (= ينتصر + **او** + الحق +**او**) .

والفتحة ، في مثل : سمع النداء (= سمع + آ + النداء + آ) .

والكسرة ، في مثل : اعتصمي بالصبر (= اعتصم + **اي** + بالصبر + **اي**) .

اي ان نفس الضمير الذي التصق بالفعل قد التصق بالاسم في الامثلة الثلاثة .

الذي يؤيد هذا تاييدا ممتعا هو وجود حركة الضمة في أواخر الالفاظ البابلية من الافعال والاسماء على السواء . فقد كانوا يقولون — من الافعال مثلا :

سخنو	(sahanu)	: سخن .
قلفو	(qalafu)	: قلف (قشر) .
صرمو	(saramu)	: صرم (قطع) .

ومن الاسماء :

ايدو	(idu)	: يد .
ملاحو	(mallahu)	: ملاح .
تربيتو	(tarbitu)	: تربية .
حرتو	(hirtu)	: حرية .

وهنا تجابهنا نقطة مهمة . ان الفعل لا يعتبر كلاما مفيدا بذاته ما لم يقترن بالاسم الذي وقع الفعل منه او عليه (في حالة المجهولية) ، فاذا غاب ذلك الاسم جيء بنائبه الضمير ليدل عليه . لذلك كان من

الطبيعي ان تتصل الضمائر بالافعال ويظهر بعضها على صورة فتحة او ضمة او كسرة . غير ان الاسم لا يحتاج الى ذكر الضمير معه لان الضمير ما هو الا نائب الاسم ، يذكر عند غيابه ليدل عليه . أما عند وجود الاسم فالاسم هو الذي يدل على نفسه . فكيف ظهر معه الضمير اذن ، والتصق به ؟

قالوا بصيغة الامر : اذهب آ ، اذهب او ، اذهب **اي** .. لكي يعرف السامع من هو المقصود بفعل الذهاب . فلماذا قالوا : الرجل آ ، الرجل **او** ، الرجل **اي** ؟ كيف انتقل هذا الضمير من الفعل الى الاسم ؟

الذي نظنه هو انهم كما استعملوا الضمير مع الفعل ليخبر عن فاعله (المسند اليه) استعملوا الضمير مبتدءا مؤخرا ، فقالوا : صغير **او** ، مريض **او** ، جائع **او** ... بمعنى صغير هو ، مريض هو ، جائع هو .. مثلما قالوا في الفعل : سخن او ، صرم او - في البابلية .

وقد تكرر ذلك فيما يظهر الى حد انه صار عادة نطقية فلصق الضمير بالاسم على هذا النحو وامثاله ، ثم عم فشمل جميع الاسماء مبتدأ وخبرا بدون تمييز . وقد رأينا كيف جرى ما هو اكبر من ذلك على شين النفي الذي لصق بالافعال المتعدية اولا ثم شمل جميع الافعال ثم جميع حالات النفي .

وواضح ان ظاهرة **تحريك اواخر الالفاظ** قد نشأت لدى الفريق الذي كان الضمير عنده هو الهمزة . وهنا تجابهنا الظاهرة اللغوية الاخرى التي عرضت لنا اكثر من مرة في مراحل هذا الحديث ونعني بها ظاهرة **اختلاف القوم في نطق الحركات** . فقد كان من اختلافهم في نطق الهمزة ان كانت عند بعضهم **(آ)** وعند بعضهم **(اي)** وعند بعضهم **(او** — o) وعند بعضهم **(او** — û)

وقد رأينا الضمة في المفردات البابلية التي اوردناها آنفا . أما الفتحة فنجدها في السريانية الشرقية — العراقية بوجه عام — التي تنطق فيها الاسماء البابلية الآنفة الذكر هكذا : **ايدا** (ida) **ملوحا** (maloha) **تربيثا** (tarbitha) **حروتا** (hirouta) . واما في السريانية الغربية — الشامية بوجه عام — فتنطق حركة آخر الاسم بين الفتحة والضمة ، اي مزقونة بالتعبير السرياني ، هكذا : **ايدو** (ido) ، **ملوحو** (maloho) ، **تربيثو** (tarbitho) **حروتو** (hirouto) . غير ان الافعال السريانية قد تخلص بعضها من هذه الحركة وبقيت ظاهرة على بعضها مثل : **شرمو** (sharmo) : شرم او صرم ، **فرو** (fro) : فرا (قطع) .

ومن عجب اننا نجد الضمة علامة اعراب في الاسماء الاغريقية واللاتينية لكن متبوعة بالسين ، ففي اللاتينية تنطق ضمة مستقيمة كالاكدية ، مثل : calamus(قلم) Antonius (انطنيو) . اما في الاغريقية فتنطق الضمة مزقونة كما في السريانية : kalamos و logos (كلمة) . وهي تنطق في الايطالية كالسريانية تماما اي بدون السين مثل : gatto (قط ، هر) ، و Antonio

ويجوز ان تكون هذه الزقفة الايطالية منحدرة من لهجة لاتينية قدمى ، كما يجوز أن تكون ترخيما من اللاتينية المعروفة بحذف السين ، كالذي حدث للسين في الفرنسية حيث اهملوا نطقه ترخيما بالرغم من انهم لا يزالون يكتبونه في مثل : suis, les, des :

ولا ندري هل بنا حاجة الى القول الآن ان الهمزة نفسها في الامثلة السابقة كلها قد ذابت واختفت ولم يبق الا حركتها اثرا يدل عليها . فان الهمزة كما هو معلوم اكثر الحروف تعرضا للتخفيف او الذوبان . واذا كان بعض اللهجات العربية ومنها الفصحى تعترف بهمزة صلبة لا تمحى في اول الكلمة سماها النحاة همزة القطع فان بعض العرب كانوا يصلون — أي يحذفون — حتى همزات القطع ، وما زال المغاربة يحذفونها عند قراءة القرآن في مثل (له ما في السماوات وما في الارض) يقرؤونها **(فلرض)** بكسر الفاء وفتح اللام كأنها كلمة واحدة من وزن دمشق ، و(والآخرة) يقرؤونها **(ولاخرة)** من وزن عباقرة .

والذي يظهر من المفردات التي استعرضناها من اللغات البابلية والارمية والاغريقية واللاتينية ان كل فئة من ابناء المعربة كانت تنطق باحدى هاته الحركات المستقيمة او المالة ، لكن تلك الحركات التقت وتخالطت وتفاعلت في المعربة — ذلك المسبك اللغوي الكبير — فاخضعها ذلك للقاعدة اللغوية الاخرى التي نوهنا بها اكثر من مرة ايضا وهي قاعدة **التخصص**. فالظاهر انه نشأ جيل من العرب في زمان ما، في مكان ما ، ينطق ابناؤه بمختلف الحركات في وقت واحد بدون تمييز . ومع مرور الزمن اخذت تلك الحركات المختلفة تبحث لنفسها عن عمل تختص

به حتى استقرت كل واحدة منها فاصبحت تدل على مجموعة من حالات الاعراب الكثيرة .

وكانت اقواها الضمة فيما يظهر ، اي ان الجماعات التي كانت تنطق بالضمة كانت اكثر عديدا او اعز جانبا من الجماعات الاخرى ، فالتصقت ضمتهم بالاسم في جميع الحالات الاعتيادية المهمة من الكلام سواء في الجمل الاسمية والفعلية : الشمس طالعة ، يهرب الغزال .. اي في الجمل التي تتكون من كلمتين (مسند اليه ومسند) . حتى المفعول به ما زال يرفع اذا تألفت الجملة منه ومن الفعل (في حالة الفعل المبني للمجهول) . اما اذا اجتمع الاسم الاصلي (الفاعل) مع اسم آخر في الجملة الفعلية فان الفتحة هي التي تتولى الاسم الطارىء ، من المفعولات ، والحال ، والظرف ..

وبتعبير آخر ان الرفع اختص بالمسند اليه في الجملة فاعلا كان او مفعولا به ! فاذا ظهر معه في الجملة الفعلية اسم آخر او اكثر انبرت له ظاهرة لغوية ثالثة هي قاعدة **(تجنب اللبس)** لتعمل عملها فيه واذا بالفتحة تتخصص بجميع الاسماء عدا المسند اليه وخبره ، اي جميع حالات المفعولية وما اليها . ومن التعميم والتجوز المبالغ فيه ان نسمي ذلك تخصصا فان حالات النصب في العربية من الكثرة والتنوع بحيث يصعب وصفها او تحديد معناها بتعبير واحد . وانما تبدو اقرب الى التخصص حالة الجر التي انحصرت في الاضافة وبضعة حروف .

ونعود لنستدرك فنقول انه ليس حتما ان تكون الحركات الثلاث قد تخصصت في وقت واحد ، فمن المحتمل ان بعضها قد تخصص قبل بعض . كما ان وجود حركة واحدة في البابلية والارمية لا يدل على ان ظاهرة الاعراب بالحركات الثلاث لم تكن قد نضجت وتبلورت في المعربة عند هجرة الاكديين — البابليين القدماء — والارميين ، ولكنها ربما لم تكن قد عمت جميع الاعربين ، او كانت قد عمت ثم اخذت تزول عند بعض العرب ولا سيما من جاور الاعاجم منهم وخالطهم .

والواقع ان المأثورات الوثائقية تدل على العكس من ذلك أن ظاهرة الاعراب كانت موجودة على اتمها في المعربة منذ عهد سحيق ، لان الاكدية نفسها وكذلك سائر الساميات القديمة — كانت في عهودها الاولى خاضعة للاعراب بالحركات الثلاث . وما الحركة الواحدة في البابلية الحديثة والارمية الا مرحلة تطورية متأخرة تمثل وشك الاعراب على الاندثار . فهي تمثل نهاية عهد الاعراب لا بدايته .

ومما يدل على قدم الاعراب في العربية وجوده في بعض الآريات على وجه يقارب الاعراب العربي ، ولاسيما اللغتين الاوربيتين القديمتين : الاغريقية واللاتينية . وما يزال الاعراب موجودا في بعض اللغات الاوربية المعاصرة كالروسية والالمانية والايطالية . والمفروض على كل حال ان الآريين عموما قد غادروا المعربة قبل الساميين عموما ، بزمن طويل.

تدريس النحو

وانه لمن العبث الاستمرار في تعليم قواعد اللغة العربية على الطريقة التفصيلية المأثورة ، التي جعلت علم النحو اصعب العلوم على التلميذ وابغضها الى نفسه الهشة وذهنه الجديد .

فالصواب عندنا ان الاسم — المعرب — يكون مرفوعا في جميع الحالات الاساسية اي حين يكون عماد الجملة او خبرا له ، الا اذا نصبته (ان) واخواتها. والذي نعنيه هو أن (ان) تنصب الاسم ولا ترفع الخبر ، لان الخبر مرفوع اصلا ! اما (كان) واخواتها فلا ترفع ولا تنصب ، وانما هي كبقية الافعال لها فاعل . وكونها افعالا ناقصة لا يغير من الامر شيئا . فاذا قلنا : (اصبح الجو باردا) كان (الجو) فاعلا لفعل (اصبح) ، واما (باردا) فقد نصب لتمييزه عن الفاعل فحسب ، مثل نصب المفعول به وغيره في : ضرب زيد عمرا ، وصيرت الحرارة الماء بخارا ، واقبل السكران مترنحا يمينا طورا وشمالا احيانا ففر الصبيان خوفا، واعطى بكر خالدا صدقة صاعا تمرا.. واعطي (بصيغة المجهول) خالد صدقة صاعا تمرا ..

فبعد ان يقال للتلميذ ان الاسم المعرب يكون مرفوعا اذا كان عماد الجملة او خبرا له (بصرف النظر عن كونه فاعلا او مفعولا به) ، يقال له ان الاسم يكون مكسورا اذا وقع مضافا اليه او مجرورا باحد الحروف المعروفة . وفيما عدا حالتي الرفع والجر هاتين يكون الاسم منصوبا في ذلك الخليط الكبير من الحالات الاعرابية الاخرى .. ومنها حتى حالات الجر التي حذف منها حرف الجر نفسه ، اي حين يكون منصوبا بنزع الخافض على تعبير النحاة .

وبعد ان يتعلم التلميذ ذلك ويتمكن منه ، لا بأس ان يعلموه ما شاءوا من التفصيلات اذا هو اراد التخصص في اللغة وآدابها .

ماذا ستكون النتيجة ؟ النتيجة ستكون ان يخسر التلميذ العلم بالقواعد النحوية العقيمة ويربح المقدرة على الكلام الصحيح بغير عناء . فاذا قيل له لماذا نصبت (سيفا) فى قوله : اذا كان بعض الناس سيفا لدولة ؟ اجاب لانه لا مرفوع ولا مجرور ! ولا عليه ان يجهل انه مفعول به او تمييز او حال او ما يسمونه خبر كان . فان المقصود هو ان يتعلم كيف يصوغ الكلام الصحيح . وذلك فيما نظن خير من أن ندعه — التلميذ المسكين الآنف الذكر — يتلك القواعد النحوية العسيرة فيخسر تعلم القواعد النحوية والقدرة على الكلام الصحيح معا ، كما هو شان اربعة اخماس حملة الدكتوراه والليسانس من خريجي الجامعات العربية .. على أقل تقدير .

الضمائر المتصلة

يظهر ان الاعربين استعملوا الضمائر منفصلة اول الامر فقالوا : ذهب انتما ، ذهب انتم ، ذهبهن.. ثم التصقت الضمائر بالافعال فقيل فى حالة الفاعلية : ذهبتما ، ذهبتم ، ذهبن . والواقع ان بعض الضمائر المتصلة ليست الا اختزالا للضمائر المنفصلة كما فى هذه النماذج ، او اعادة لها بنصها كضمير (هو) فى قولهم فى حالة المفعولية : رايتهو (رايته) ، وكضمير (هما) فى : رايتهما ، و(هن) فى : رايتهن .

ولعل بعض الاقدمين الحقوا ضمير (هم) مثلا بالفعل فقالوا (نام هم) بدلا من (ناموا) ، لكن هاء (هم) خففت مع الزمن فنشأ النطق المصري الذي نوهنا به : (عرفم ، نامم ، راحم) اي النطق اليعربي المندرس فيما يبدو ، ويمثله النطق المصري الراهن . وبعد تخفيف آخر زال الميم ايضا وبقيت الضمة وحدها فنشأ نطق الفصحى : عرفو ، نامو ، راحو .

ومهما يكن فان قاعدة الحاق الضمير بالافعال مختزلا او معادا قد اختلت ، ففي قولهم (رايتها) كان ينبغي أن يعيدوا ضمير (هي) فيقولوا (رايت هي) ، او يختزلوه فيقولوا (رايتي) ، لكننا لا نجد احدى هاتين الصورتين فى لغتنا فى الماضي او المضارع ، وانما نجد الثانية منهما فى صيغة الامر (اذهبي) ، لكن هذه مخففة من (تذهبين) لا من (ذهبهي) .

كذلك ضمير (هو) الذي استعملوه متصلا فى حالة المفعولية مثل (رايتهو) لا نجده متصلا فى حالة الفاعلية فلم يقولوا (ذهبهو) ، بل (ذهب) . واغلب الظن ان هاء (هو) قد ذابت تخفيفا فصار الفعل (ذهبو) ، ولما كانت هذه الصيغة تشبه قولهم (ذهبوا) بمعنى الجمع فقد انبرت قاعدة تجنب اللبس وافسحت المجال لضمير (آ) الذي كان ينطق به بعض الاعربين فيما يظهر فراجت صيغة (ذهب) بفتح الباء للفرد و(ذهبا) بفتحها ومدها للاثنين .

وهذا كله عن صيغة الماضي ، فاما المضارع فقد استأثر فيه ضمير (او) بجميع صيغ المفرد هذه : اذهب انا (= اذهب + **او**) ، تذهب انت ، يذهب ، تذهب هي .. وصيغة الجمع : نذهب .

وبدلا من التحدث عن كل ضمير على حدة نؤثر ان نعرض الضمائر المنفصلة كلها لنظر القارىء الكريم مع ما يقابلها من الضمائر المتصلة فى صيغ الماضي والمضارع وامر المخاطبين ، تاركين له التمعن فيها وملاحظة ما يجري منها على قاعدة وما يجري منها على مصادفات الاعتباط التطوري :

انا : ذهبت ، اذهب
نحن : ذهبنا ، نذهب
انت : ذهبت ، تذهب ، اذهب
انت : ذهبت ، تذهبين ، اذهبي
انتما : ذهبتما ، تذهبان ، اذهبا
انتم : ذهبتم ، تذهبون ، اذهبوا
انتن : ذهبتن ، تذهبن ، اذهبن
هو : ذهب ، يذهب
هي : ذهبت ، تذهب
هما : ذهبا ، يذهبان
هما : ذهبتا ، تذهبان
هم : ذهبوا ، يذهبون
هن : ذهبن ، يذهبن .

التثنية والجمع

القرائن اللغوية تنبىء ان الاعربين عمدوا الى تكرار اللفظة للدلالة على الجمع ، وقد سبق ان قلنا ان ضمير (نحن) مركب اثلا من تكرار (انا) ، وان بعض اللغات ما زالت تجمع الاسماء بتكرارها كما فى الاندونيسية (سودارا سودارا = صديق صديق ، اي: اصدقاء) .

وقد وجدنا كلمة عجيبة تؤيد هذه الفكرة وتخرجها من طور النظرية الى ما يقرب من اليقين ، وهي **(آنان)** الفارسية وتعني : اولئك ، هم . ومفردها **(آن)** : هو لغير العاقل ، ذلك للعاقل وغيره ، كما قلنا قبل . وواضح أن (آنان) ما هي الا تكرار (آن)

وبعبارة تحليلية اوضح ان (آنان) =آن+آن)؛ وانهذا التكرار لم يكن المقصود به سوى الجمع . اي ان اصل معناه كان (هو هو) بمعنى هم ، او (ذلك ذلك) بمعنى اولئك .

لكن بما أن (آن) وحدها تعني الفرد و(آنان) تعني الجمع فقد وقع في وهم الاجيال اللاحقة التي ورثت صيغة (آنان) ان (آن) الثانية تعني اداة الجمع. لذلك لما تطور الضمير (آن) فصار ينطق (اين) بمعنى هذا ، لم يجمعوه بطريقة التكرار على (اين اين) ، بل اضافوا اليه (آن) الثانية بصفتها اداة جمع فقالوا (ايناں) : هؤلاء (= اين + آن) .

وبعد ان رسخت مكانة (آن) كاداة للجمع شملت جميع الاسماء اول الامر عند الناطقين بها فيما نظن . ثم ظهر قوم نطقوها **(هان)** و **(ها)** .

وبعد الاختلاط والتعايش تخصصت **(آن)** في الفارسية بجمع ذوات الروح من حيوان وانسان وكواكب ، وقد كانت الكواكب تمثل ارواحا وآلهة عند القدماء كما هو معلوم . وتخصصت **(ها)** بجمع الجمادات اولا ، ثم اخذت تنافس (آن) اخيرا في جمع العاقل ايضا ، في الفارسية الحديثة . واما صيغة **(هان)** فقد صارت في الفارسية تعني التحذير اي التنبيه ، وسوف نطالعنا ثانية مع اثلها (آن) في مجال حيوي آخر . فلنتركها وشانها الان .

ووفاقا لنظريتنا في امومة العربية نعتقد ان استخدام (آن) اداة للجمع نشأ في المعربة اولا . فأول دليل على هذا هو أن (آن) ما زالت في العربية اداة (التثنية) وهي ادنى الجمع . بل انها ما زالت باقية في جمع الكثير من الاسماء العربية ، كالاخ والصبي والغلام والفارس والنديم والقضيب والحمل والذئب.. فهذه الاسماء كالكثير سواها ما زالت تجمع على : اخوان وصبيان وغلمان وفرسان وندمان وقضبان وحملان وذؤبان . والنسوان جمع ضاعت فردته في اطواء الزمان .

ويكثر هذا الجمع على الاخص فيما يدل على الانسان من الصفات التي وردت على وزن (افعل) كالابيض والاسود والاطرش ، فهي تجمع على بيضان وسودان وطرشان .

ولئن كانت لاداة الجمع هذه صيغة واحدة في الفارسية هي (آن) فما زالت لدينا منها في العربية خمس صور : **آن** ، **اين** (بفتح الهمزة) ، **اون** (بضمها) **اين** (بكسرها) ، **اون** (بفتحها) .. نجدها في قولهم : صيادان ، صيادين (اثنين) ، صيادون ، صياديـن (جمع) ، يرضون . وقد تخصصت الصيغتان الاوليان بالتثنية كما هو غني عن البيان ؛ والثالثة والرابعة بالجمع ، والاخيرة بجمع المضارع المقصور .

والظاهر ان جميع الاسماء كانت تجمع وتثنى في العربية بالالف والنون اول الامر ، ثم اراد الاعربي ان يخص التثنية بتعبير خاص بها يميزها عن حالتي الافراد والجمع ، وربما كان ذلك لاسباب اجتماعية بقصد الدلالة على (الزوجين) من الذكر والانثى عندما اصبحت للحياة العائلية اهمية خاصة عنده . وقد ساعده على هذا التمييز بين التثنية والجمع ظهور صيغ جديدة ، فاختص الصيغة الاصلية **(آن)** بالتثنية وترك الصيغة الطارئة **(اون) للجمع** .

ولئن كانت (آن) اداة تثنية للعاقل وغيره فالذي نعتقده ان **(اون)** ايضا كانت اداة لجمع العاقل وغيره، وما زالت شواهد من جمع الجمادات على طريقة جمع المذكر السالم تطالعنا في العربية في مثل جمع البرة — بضم ففتح — على برون وبرين — والسنة على سنون وسنين ، والارض على ارضون وارضين، والمئة على مئون ومئين .

ثم انه لما كثرت صيغ جمع التكسير عند مختلف القبائل والبطون وراجت اخذت (اون) تتخصص بجمع العاقل .

ويلاحظ أن صيغ (افعل) التي تجمع بالالف والنون (كالسودان والبيضان والعرجان) تدل على الانسان ، فاما اذا اريد بها غيره فهي تجمع على سود وبيض وعرج . وهذا احد مظاهر تخصص ضمير (آن) بالانسان ، ونحسبه يفسر لنا كيف تخصص في الفارسية بذي الروح اول الامر ، ثم تخصص بالانسان وحده في اللغة الحديثة .

ولم تظهر في التثنية صيغ تكسير ، او ظهرت واندحرت ، فبقيت التثنية كلها سالمة ، للذكر والانثى، والعاقل وغيره .

التأنيث وجمعه

اداة التانيث في الاكدية هي التاء يلحقونها بالاسم المذكر . فمثلا (بعلو) تصبح (بعلتو) . وهذا عين ما نجده في العربية : (المرؤ) مؤنثه **(المراتو)** ، و **(الهرو)** مؤنثه **(الهرتو)** ، وهكذا . واما قولنا رايت المرا والمراة،

بالفتحة على كليهما ؛ نشبيه بنطق السريان الشرقيين : بعلا وبعلتا .

وقد ظهرت هذه التاء فيما يبدو من اضافة ضمير (**ات**) الى الاسماء ؛ وهو الذي نجده ضميرا متصلا بالفعل الماضي (فعلت هي) للدلالة على معنى التأنيث ايضا ؛ (فعلت = فعل + **ات**) .

وكان بعض العرب يخففون تاء (المراة والهرة) فينطقونها اشبه بالهاء او الفتحة القصيرة ؛ فصارت هي القاعدة عند الوقف عموما . لكن بعضهم ينطق التاء حتى عند الوقف ، وقد سمعت محاضرة ذات مرة من اذاعة بيروت كان المحاضر يقول فى اثنائها (الجامعت ، الكليت ، الحريت) . وهذي هي طريقة الفرس فى نطق معظم الالفاظ المؤنثة المقتبسة من العربية مثل : دولت ، امانت ، مشروطيت . وهي كذلك طريقة الفرنسيين فى مثل : ce (هذا) ومؤنثها : cette (هذه) ؛ و fils (ابن) ومؤنثها : fillette (بنت) . اما الايطاليون فيطلقونها فتحة فى آخر الاسماء المؤنثة مثل gatto (هر) ومؤنثها gatta (هرة) ، ومثل bravo (بارع؛ أو مرحى للذكر)،و brava (بارعة؛ أو مرحى للانثى) .

وقد تحير النحاة العرب فى امر علامة التأنيث هذه هل هي التاء ام الهاء . واخذ بعضهم ومنهم الفيروزابادي فى قاموسه بنظرية الهاء . لكن الذي يبدو لنا مما تقدم انها التاء ؛ اي ضمير (ات) ذابت همزته وبقيت الفتحة على ما قبله دليلا عليها .

واما جمع المؤنث السالم بالالف والتاء فالاغلب انه ناشىء من مد فتحة ما قبل التاء ؛ مثل : ذئبت ؛ شجرت ، حركت .. كان بعضهم ينطقها بالمد : ذئبات، شجرات ؛ حركات .

وعادة اطالة الحركات عند بعض العرب ما زلنا نجدها فى المغرب ؛ فان حميد ؛ مدير ؛ بالتي .. ينطقها اكثرهم : حاميد ؛ موديـر ، باللاتي .. وما اكثر ما تسمع من بعضهم : والله العاظيم .

ويبدو من هذا الباب نطق المصريين بعض اسماء الاناث مثل : زينات ونعمات ، بدلا من زينت ونعمت .. وقولهم : دمك شربات ؛ ونعتقد ان اثلها (شربت) كما ينطقها العراقيون ، وتعني الاشربة الحلوة ، وفصيحها (شربة) .

فلما التقى النطقان — نطق المؤنث بالمد وبالقصر — تخصصت الفتحة القصيرة بالمفرد والطويلة بالجمع .

التنوين

تنوين الاسماء يعد عند النحاة امارة تمكنها من الاسمية ، واول مشكلة يثيرها لهم تفجير الضمائر فى هذا الصدد هي ان الافعال ايضا تنون كالاسماء، وان تحليل قولهم بصيغة امر المفرد (اذهبن) يكشف انه (= اذهب + **ان**) .. كما ان قولهم رجلن (رجلا) (=رجل+ **ان**) ! ومثل ذلك يقال فى : « لنسفعن بالناصية » . ومن تشديد النون نشأت صيغ اخرى مثل : لاعذبنه او ليأتيني بنبأ عظيم .

ويبدو ان التنوين كان اكثر شيوعا فى الافعال مما وصل الينا من مأثورات العرب . وما زال الجنوبيون من اهل العراق يكثرون من تنوين الفعل فى مثل : اصبن ؛ واصومن (= اصب ، واصوم) .. ومنها الاغنية الشعبية العراقية المشهورة : ما اكدر اكولن آه خوف الفضيحة (= ما اقدر اقولن آه..) وواضح ان هذا مجرد لهجة ، وليس المقصود بها التوكيد كما هي الحال فى الامثلة السابقة .

ولعل من دلائل شيوع التنوين فى الافعال قديما تنوين الفعل المضارع فى السكسونية : bringan (يجلب) ؛ و beatan (يضرب) ، و sceawian (يرى) ، وتنطق (شاويان) ولعلها من العربية : شاف يشوف .

والذي نظنه ان بعض العرب كانوا يلحقون بالالفاظ ضمير (آن) بالاضافة الى اولئك الذين كانوا يلحقون بها ضمير (آ) . فان صح هذا فهو سبب نشوء التنوين ؛ والا فلا مناص لنا من ان نفترض انهم الحقوا الهمزة اولا ثم الحقوا بها النون ثانيا . لكننا نرجح الاحتمال الاول .

وعندما التقى التنوين بحركات الاعراب تخصص التنوين بالتنكير وبقيت الحركات غير المنونة لحالات التعريف بوجه عام . ولعل من هذا القبيل ضمير (آن — an) الذي تخصص فى الانكليزية بالتنكير مع الاسماء المبدوءة بالهمزة .

فعلى هذا يكون تحليل الاسم المنون هكذا :
واتفا = واتف + **آن** .
واتف (بالضم) = واتف + **اون** .

واقف (بالكسر) = واقف + **ايـــن** .

اما الافعال فالتنوين فيها يعني التوكيد بوجـــه عام . الا انه بالنظر لكثرة الضمائر المتصلة لم يمكـــن تخصيص صيغة منونة لكل منهـــا لان الحركـــات لا تزيد على الثلاث ؛ لهذا صـــار قولك **(لتذهبن)** بفتـــح الباء وتشديد النون ـــ يعني المخاطب والغائبـــة ؛ وبضم الباء يعني المخاطبين والمخاطبات ؛ وبكسرها يعني المخاطبة . وهذا شبيه بما رأيناه من (تخصص) كل واحدة من حركات الاعراب الثلاث بعدد من حالات الاعراب في الاسماء . اما صيغة **(لتذهبان)** فيكـــــون توكيدها بتشديد النون ؛ واما (يذهبن) فهي توكيدية بالتخفيف او التشديد .

ويلاحظ ان النون يحذف من الاسم المنون عند الوقوف فمن اجل ذلك كتبوا الفتحة المنونة الفا، اي كتبوها كما ينطقونها في حالة الوقوف عليها . ولم يكتبوا الضمـــة المنونة واوا ولا الكسرة المنونة ياءا لان الوقوف عليها يكون بالسكون اي بحذف النون والحركة التي قبلـــه. ومعنى هذا انهم لم يرسموا التنوين في الكتابـــة الى ان ظهرت علامات شكل الحركات في العربية فصاروا يرسمـــون التنـــويـــن حركـــة مضـــاعفـــة اي فتحتين او ضمتين او كسرتين .

التعريف

لم يقتصر استعمال الضميرين **(آ ، وآن)** علـــى الحالات الآنفة الذكر ، وانما استعملا للتعريف ايضا !

اما **(آن)** فتطالعنا بنصها اداة تلحق الاســـم لتعريفه في لغات اليمن المندرسة . و(آن) هذه قـــد صادفناها اكثر من مرة كاسم اشـــارة واداة جمع في الفارسية ، واداة تثنية وجمع وتنكيـــر في العربية ، واداة تنكيـــر في الانكليزيـــة ..

والظاهر ان معنى الاشارة هو الذي اعطاهـــا معنى التعريف ، يؤيد ذلك لنا ان (آن) التي هـــي اداة تعريف في اليمنيات القدمى ما زالت تستعمل في الفارسية كاسم اشارة . وهذا دليل واهن في الواقـــع لان الضمائر استعملت بمعان شتى ومنها ضمير (آن) نفسه . غير اننا نلاحظ ان اللاتينيـــة ليست فيها اداة خاصة للتعريف لان الاسم يعتبر فيها معرفة بذاتـــه كالفارسية وبعض الساميات القديمة ، لكن اللاتين استعملوا في حالات التوكيد ادوات الاشارة مـــع الاسماء بمعنى التعريف .

يقول الايراني اليوم (**آن** قلم) بمعنى : ذلـــك القلم . فكذلك جدنا ساكن الغاب اذا قال (**آن** شجرة) ـــ اي هذه الشجرة او تلك الشجرة ـــ يكون قـــد عرفها لمخاطبه من بين الاشجار الاخرى . ومع الزمن اصبح قوله (آن شجرة) يدل على الشجرة المقصودة ولو كانت غائبة عن العيان . ودأبت الاجيال على ذلك حتـــى صارت **(آن)** اداة للتعريف .

وقد ابدل بعض الاعربين الهمزة هاءا فنطقوها **(هان)** ، ويظهر الضمير علـــى هـــذه الصـــورة اداة للتعريف في العبرية القديمة ؛ ربما موروثا عن امهـــا الكنعانيـــة .

وقد نطقها آخرون من العرب مرخمة **(ها)** كما يتضح من اكاتيب بعـــض اللغات العربية البائـــدة كاللحيانية والثمودية والصفوية (نسبة الى روابـــي الصفا التي اكتشفت فيها بعض الاكاتيب منقوشـــة على الحجر ، بسورية) ، فقد ورد في هذه اللغات مثلا: ه و ع ل (الوعل) ، ه ج م ل (الجمل) ، ه د ر (الدار) ه ب ي ت (البيت) .

ويحتمل ايضا ان **(ها)** لم تتكون ترخيما مـــن (هان) بل ابدالا من الهمزة (آ) .

ولا نؤثر الانسياق مع الاحتمالات الآن لكثرتهـــا وتشعبها ؛ فان جذور الضمائر وفروعها من التشابك والتعقيد بحيث يتعذر احيانا ان نستل احدها من بيـــن اخوانه دون مساس بســـواه .

وايـــا كان اثل (ها) فقـــد كانت اداة تعريف في تلك اللغات البائدة ، وقد رسموها هاءا مجردة :(ه)، ويغلب على ظننا انهم كانوا ينطقونهـــا بالمد **(ها)** في هذه الالفاظ وامثالها ـــ او في بعض تلك اللغات علـــى الاقل ـــ لان القوم لم يكونوا يستعملون حروف المـــد في كتاباتهم ، فقد كانوا مثلا يكتبون (در) ليقرؤوها (دار) كالذي رأينا ، و(مت) ليقرؤوها (مناة) ، و(يغث) ليقرؤوها (يغوث) ، و(عم) ليقرؤوها (عام) اي سنة .

فهذا يشجعنا على القول ان مـــن المحتمل ان (ه ج م ل) كانوا ينطقونها **(ها جمل)** ـــ مثلما نكتـــب نحن : هذه ، ولكن ، وطه .. لنقراهـــا : ها ذهي ، ولاكن ، وطاها . على أن هذا مجرد احتمال . وانمـــا يمكننا التأكد اذا اكتشف شعر موزون من تلك اللغات يساعدنا وزنه على معرفة حركة الهاء اطويلة هي ام قصيـــرة .

والظاهر ان الصيغتين (ها ، وهان) قد اندرستا كأداتين للتعريف لكن بقي من مخلفاتهما **(هان)** في الفارسية للتحذير او التنبيه ، و **(هـا)** في العربية للتنبيه ، و**(هاه)** للوعيد ، وياله من تنبيه وتحذير .

قلنا ان اللاتينية كانت تستعمل الاشارة احيانا للتعريف ، واليك منها هذه الصيغ الهائية الثلاث : hoc, hic, haec (والكاف هنا مبدل من التاء كما لا حاجة بنا الى ان نقول) .

لقد افترضنا ان جدنا نزيل الغاب — طيب الله ثراه — قال (آن شجرة) بمعنى (هذه الشجرة) ثم بمعنى (الشجرة) . فهنا تنبض لغة (أمن امبر) امصيام في امسفر) المشهورة ، التي سموها طمطمانية حمير ، لتقص علينا حكاية اخرى مفادها ان ميم (أم) التعريف هنا مبدل من نون (آن) التعريف القدمى .

ولعل هذا الابدال قد جرى عن طريق هذه الحروف الثلاثة (ب،م،ف) واهل القراءات اعلم الناس بان النون الساكن ينطق ميما قبل الحرفين الاوليين في مثل : **من بعد** ما تبين لهم الهدى ، و: **من ما** رزقناهم (حتى انها لتكتب : مما) . وينطق النون قريبا من الميم قبل الحرف الثالث (الفاء) في مثل : **ينفقون** ..

فمن اجل هذا يكتب الاوربيون النون ميما كما ينطقونه في امثال هذه الاحوال : ambition و symphony و immortal, و sympathy,

وايا كانت الطريقة التي يكتب بها الاوربيون فان النون والميم من حروف التناوب او التبادل ؛ اي ان مخرجيهما متقاربان فلذلك يكثر ابدال احدهما بالآخر

وبعد كل هذا لا تثريب علينا اذا نحن استنتجنا ان هذه اللغة الميمية الحميرية قد انحدرت من لغة نونية سابقة كانت تقول : انشجرة ، انفيل ، انمكان ، انبيت ، امن انبر انصيام في انسفر !

وقد بقي من تلك اللغة النونية ان بدو الهلال الخصيب ، وربما غيرهم ايضا ، ما زالوا يقولون (بيت انعامر) على حين ان الحضر ينطقونها : بيت العامر ، و(رجال انزين) والحضر ينطقونها : رجال الزين ، و(ليل انطويل) والحضر ينطقونها : ليل الطويل . وما زلت اتذكر بدويا سمعته منذ ثلاثين عاما يذكر اسم الارجنتين : البلد الذي كان اخوه قد هاجر اليه في صباه ، فينطقه (عرج انتين) على اساس ان اثل الاسم (عرق التين) !

ولا ندري هل من **(أن)** ام من **(أم)** نبطت **(أل)** التعريف عندنا . لكننا نرجح انها من (أن) لان نطق الحروف الشمسية بعد (ال) اشبه بنطقها بعد (أن) منه بعد (أم) ..

ومهما يكن فان **(ال)** هي التي راجت ودامت اداة للتعريف حتى هذه اللحظة ، لا في العربة وسائر الاقطار العربية فقط لكن في اوربا وامريكا ايضا ، نعني في اللغات المنحدرة من اللاتينية ، الايطالية والفرنسية والاسبانية .. حيث يظهر اللام اداة للتعريف في عدة صور : los, les, lo, le, la, il

اما في اللاتينية نفسها فقد ذكرنا من اسماء الاشارة التي استعملت للتعريف : haec و hic و hoc ، ونضيف اليها الآن هذه الصيغ اللامية الثلاث : illud, elle, illa (= ال + او + د ، **تا**) .. ونضيف اليها ايضا بهذه المناسبة هذه الصيغ الاخرى : istud, iste, ista وسيأتي الحديث عن عروبة هذه الصيغ الثلاث الاخيرة عند الكلام على (ظهور السين) .

ومعنى هذا ان لام التعريف قد استعمل في اللاتينية بمعنى الاشارة ايضا ، مما يؤيد ما قلناه آنفا من ان التعريف اصله الاشارة . وقد استعملوا اللام بمعنى الضمير كذلك مثل : elle (هو)، illi, illae (هم) .

والامر شبيه بهذا في بنات اللاتينية فبالاضافة الى استعمال اللام للتعريف في الامثلة السالفة نجده في الفرنسية مثلا ضميرا بصيغة il (هو) ، و elle (هي) .. كما نجده اداة (اشارة) بصيغة la (هناك) . وعدا هذا تستعمل ادوات التعريف تلك مع صيغ لامية اخرى كضمائر في بعض الحالات كما في قولهم montrez le moi ارني **اياه** .

وقياسا على ما تقدم بنا من الكلام عن الضمائر من أوله يمكننا ان نستنبط من هذا الآن ان كل هذه الصيغ، وغيرها ، قد كانت موجودة في العربية بهذه المعاني وبمعان اخرى على الاغلب ، ثم اندثر ما اندثر وبقي ما بقي .

وما دمنا بصدد الحديث عن التعريف وادواته نقول ان الانكليزية قد اختارت لغرض التعريف احد اسماء الاشارة ايضا ، وهو : ذي (the)

ولما كان اثل التنوين هو (آن) واثل التعريف

كذلك هو (آن) فمن السهل علينا أن نتصور أن التعريف والتنكير كانا شيئا واحدا أول الامر ، ولاسيما ان (آن) التعريف اليمنية تلحق الاسماء **كالتنوين** عندنا بينما (آن — an) التنكير الانكليزية على العكس تسبق الاسم ، **كالتعريف** عندنا .

ولدينا الآن مثل حي على اختلاط التعريف بالتنكير ، وفي لغة واحدة ، هي الدارجة المغربية .. فهم يقولون : اشتريت واحد الفروج (= اشتريت ديكا) ، وتوصلت بواحد الرسالة (= تلقيت رسالة) ، والمغرب عقد واحد الاتفاقيات الاقتصادية المهمة مع الدول العربية (عقد المغرب اتفاقيات اقتصادية..)

ها هنا اقترن الجمع بالافراد والتأنيث بالتذكير علاوة على اقتران التعريف بالتنكير . ونتيجة الخلطة في هذه التعابير وامثالها هي التنكير ، اي ان لام التعريف عاطل عن العمل .. زائد لغوي .

اما البدوي الذي ذكرنا انه يقول (بيت **انعامر** ، ورجال **انزين** ؛ وليل **انطويل**) فالذي يلوح انه يريد في واقع الامر ان يقول : (**بيتن** عامر ، **ورجالن** زين ، **وليلن** طويل) اي انه يقصد التنوين ؛ وان الحضري يترجم كلامه الى (بيت العامر ، ورجال الزين ، وليل الطويل) . ولعل هذا يفسر لنا كيف انتقل النون من آخر الاسم الى اوله .

على ان البدوي نفسه يستعمل (ان) للتعريف ايضا وفي اول الاسم ، على لغة (عرج **انتين**) ..

ظهور السين

ظهور السين في الضمائر حدث خطير يمثل بداية مرحلة توسعية في اللغة . ولا ندري بالدقة ما سبب ذلك الانهماك به حتى تعددت وظائفه وتنوعت كانما هو واحد من الضمائر البدائية الاصلية .

وكان اول ما لفت هذا السين نظرنا في الاسماء اللاتينية مثل : calamus (قلم) و oceanus (بحر) . ثم عرفنا السين في الاسماء الاغريقية التي وردت فيها هاتان الكلمتان بصيغة : kalamos و okeanos . وقد تطرق الى وهمنا اولا ، ان الضمة التي تسبق السين في امثال هذه الالفاظ قد جاءت من الاكدية التي قلنا ان الفاظها تنتهي بالضمة بوجه عام . لكن اذا كانت الضمة مقتبسة من الاكدية فكيف ظهر معها السين نفسه ؟ سؤال طالما تحيرنا في جوابه .

وعندما درسنا الضمائر بهذه الطريقة الترسيسية (*) المقارنة تبين لنا ان السين ايضا من العربية ، ولو ان تأثيره التطوري في العربية ضعيف اذا هو قيس بتأثيره في الآريات وتكوين خصائصها وقواعد نحوها .

ونرجح ان هذا السين ليس بالحرف الاثيل مثل (آ ، نا ، تا) ، ولا هو بالحرف الزائد كالحاء في (نحن) ، **وانما هو مبدل من التاء**، اي ان (أوس — us) في اللاتينية = او (**آ**) + س (ت ، **تا**) . وبعبارة اوضح ان (اوس — us) اثلها **(اوت)** !

والصاق الضمائر بالالفاظ — تصديرا او تذييلا — امر لم يعد يحتاج فيما نظن الى برهان ، فهي ظاهرة قد عرفناها والفناها بعد الذي رأينا من امثلة كثيرة . وقد رأينا ضمير (ات) يلتحق بالاسم اداة للتأنيث ، و (آت) — بالمد — اداة لجمع المؤنث السالم .

ومثل ذلك فعلوا بضمير **(اوت)** الذي الحقوه ببعض الاسماء دلالة على المصدرية مثل : كهنوت وجبروت . ومن يدري لعل gelidus, calamus, genius و camelus في اللاتينية انما هي من قول بعض العرب البائدة : جملوت وجنيوت (جني) وقلموت وجليدوت .. بل لعلهم نطقوها جملوس وجنيوس وقلموس وجليدوس ، ايضا .. ثم اندثروا واندثرت معهم لهجتهم لولا ظهورها في اللاتينية والاغريقية .

وكما نجد ضمير (ات) في العربية مفتوح الهمزة في (اخوات) ومضمومها في (ملكوت) نجده مكسورها ايضا في (عفريت نفريت) ، زادوه في (العفر والنفر) توكيدا للمعنى وتقوية لوقعه في النفس .

ان تبادل التاء والسين ليس بدعا في العربية ، فمنه : **التهو** والسهو ، خات بالعهد وخاس ؛ الترتل في القراءة والترسل .. ومنه ايضا النات والناس ، والاكيات والاكياس (من الكياسة) ، وقد قال شاعرهم:

لا بارك الله بني السعلاة
عمرو بن يربوع شرار **النات**
ليسوا باخيار ولا **اكيات** !

(*) نقصد بالترسيس البحث عن الارساس — جمع رس — اي الجذور الاولى من اللفظ . ولنا كلمة عن الموضوع بعنوان « علم الترسيس » في مكان آخر من هذا العدد من « اللسان العربي » .

ونزعة ابدال التاء سينا تظهر فى اللاتينية نفسها ، بل هي قاعدة مطردة فى بعض الحالات ، مثل : nation التي تنطق تاؤها سينا بالفرنسية وشينا بالانكليزية ، و negotiation التي تنطق بشينين فى الانكليزية ، وتكتب négociation لتنطق بسينين بالفرنسية .

يضاف الى ذلك ان ضمير (أنا — atta) الذي يعني بالاكدية (انت) ينطق بالايطالية (essa) بمعنى (هي) ، و esso بمعنى (هو) .

اس — us

على ما تقدم لا نستغرب اذا وجدنا هذا الابدال بين الحرفين قد وقع فى العربية نفسها قبل انتقال الضمير الى اللاتينية . فالواقع اننا نجد بعض الاسماء العربية قد زيد فيها (اس ، واوس ، وايس) مثل : **القسطاس والعيطموس** (= التامة الخلق من الابل والنساء) ، **والدردبيس** (= الداهية والشيخ والعجوز الفانية) .. تقابلها فى اللاتينية اسماء أضيف اليها هذا الضمير بصوره الثلاث هذه ، مثل : habitas (مقدرة) ، و justus (عادل ، واثلها القسطاس الآنفة الذكر) ، و carnis (لحم) .

ويطالعنا هذا الضمير فى العربية بصيغه السينية الثلاث واضحا صريحا فى كلمة واحدة هي **(الاس)** — بفتح الهمزة وضمها وكسرها ! — بمعنى الاصل والاساس . واستعماله بهذا المعنى لا يثير عجبنا لان اطلاق الضمير العام على الامور الجوهرية (الاساسية) مألوف فى اللغات . وقد اطلق المتصوفة العرب ضمير **(هو)** على ذات الله ، وطالما رددوا فى اذكارهم : ياهو ، ياهو ..

وكذلك فعل الاكديون من قبل يوم اطلقوا ضمير **(ايا** — Ea) على (الماء العذب) اكبر آلهتهم ، ونفس الكلمة (ea) تعني باللاتينية ضمير الغائبة وتنطق بالعربية **(هي)** ! وواضح ان اللفظة انما كانت قد اطلقت على الاله البابلي الكبير عندما كانت تعني عندهم الضمير العام ، او ضمير الغائب الذكر كما فى الانكليزية (هي — he) هو .

ومن صور **(الاس)** نجد فى الايطالية ضميري essa (هي) و esso (هو) اللذين سبق ذكرهما . ومن صور (الاس) فى اللاتينية : esse — بتشديد السين ايضا — بمعنى : يكون . ومنها فى اللغات الاوربية الحديثة essence بمعنى قريب جدا من المعنى العربي : الذات ، الجوهر ، العنصر ، الخلاصة ..

والحقيقة ان الكلمة تعني الضمير والكينونة والوجود بالعربية ايضا فى صورة **(ايس)** الباقية لدينا فى (ليس) ! وما نقول هذا من عند نفسنا وانما هو أمر معروف لدى اهل الصنعة ، وقديما قال لغوينا الكبير الفراهيدي — الخليل بن احمد — ان (ليس) أصلها (لا ايس) مستشهدا بقول العرب : « ائتني به من حيث ايس ولا ايس ، أي من حيث هو ولا هو » .. أي من حيث يوجد ولا يوجد ، او من حيث يكون ولا يكون . وقوله : « من حيث هو ولا هو » يدل على ان (ايس) ضمير فعلا . يؤيد ذلك ان كان بحاجة الى تأييد انه ورد فى الفارسية بصورة **(اش)** ضميرا متصلا بمعنى (هو) ايضا . وجمعه **(ايشان)** ينبيء انه كان فى الاثل (ايش) كأثله العربي (ايس) .

وظائف السين

ويتوزع السين على كثير من الالفاظ الاوربية ، يتصدرها حينا من قبيل (se) التي تسبق بعض الافعال فى الفرنسية — وغيرها — بمعنى نفس او ذات مثل : se lever : يرفع نفسه (= ينهض) ، و s'appeler : ينادي نفسه (= يتسمى ، يدعى) .. ويذيلها حينا كالسين الذي يلتحق بآخر الاسماء علامة للجمع فى الفرنسية والانكليزية والاسبانية .

ويحتل السين مكانة خاصة غريبة فى الجملة الانكليزية ، فهو يلتحق بالفاعل علامة جمع او بالفعل علامة افراد ! المهم ان هذا السين لابد منه فى الجملة الفعلية المضارعة فان لم يظهر على الاسم ظهر على الفعل ليؤدي فى كل من الحالتين وظيفة مناقضة للاخرى . تقول : The girls play : الصبايا يلعبن . فاذا اردت ان تقول الصبية تلعب ، حيث لا يمكن استعمال السين للجمع اضطررت الى سحبه من آخر الاسم الى آخر الفعل فتقول The girl plays كذلك الحال فى قولك The girls have played : لعبت الصبايا ، و The girl has played : لعبت الصبية . وكذلك الحال فى الجملة الاسمية ايضا حيث تقول The girls are playing : الصبايا لاعبات ، و The girl is playing : الصبية لاعبة .. كأنما السين هو ملح الارض

بالنسبة الى الجملة الانكليزية لا غنى عنه فى طعام سائغ ، اي عبارة سليمة .

وهذا الفعل المساعد (is) الذي يظهر فى الجملة الانكليزية الاسمية يذكرنا بنظيره **(اس)** فى الفارسية الشيرازية الذي يؤدي نفس المعنى فى الجملة الاسمية مثل : هوا سرداس (= الهواء صرد ؛ اي : الجو بارد) .

فعل الكينونة

هنا تطل علينا برأسها ظاهرة لغوية خطيرة تجيبنا على هذا السؤال الذي طالما الح على اذهان اللغويين فلم يجدوا له جوابا : **كيف حدث أن أصبحت الجملة الاسمية فى الآريات تعتمد على فعل الكينونة ، خلافا للساميات ؟**

فى الآريات لا يقولون : انا هنا ؛ بل يقولون : انا **اكون هنا** . ولا يقولون : الغائب معذور ؛ والرجال توامون ، وانتم الناس ايها الشعراء .. وانما يقولون : الغائب (يكون) معذورا ، والرجال (يكونون) توامين ، وانتم (تكونون) الناس ايها الشعراء .

وبتعبير آخر لا توجد فى الآريات جملة اسمية ، لانهم يدخلون فى الجملة الاسمية هذا الذي يسمونه **الفعل المساعد** بمعنى (كائن) أو (يكون) ليستقر التعبير ويستوي عندهم .

أفليس عجيبا جدا أن تكون هذه الخصلة اللغوية التي تعد فى طليعة الخصائص التي يذكرها علماء اللغة بين الخصال التي تتميز بها اللغات الآرية عن العربية وبقية الساميات — اليس عجيبا جدا أن تكون منحدرة من ارومة عربية صميمة ؟

اذا تحرينا فعل الكينونة للغائب فى الآريات — الانكليزية والفرنسية والفارسية — وجدنا انه من (الاس) الذي مر بنا حديثه . وهو يطالعنا بصورة (est) فى الفرنسية ، و**(أست)** فى الفارسية الرسمية؛ و **(اس)** فى فارسية شيراز ، و (is) فى الانكليزية . وهذه الاخيرة علاقتها واضحة لفظا ومعنى باللاتينية (esse) — يكون — ومن ثم بالعربية **(اس)** .

واما صيغة **(است)** فى الفرنسية والفارسية فيدهشنا ان نجدها فى العربية أيضا **(الاست)** بمعنى الاساس والاصل ؛ اي انها متطورة من (الاس) بنفس معناه . وبعبارة اخرى ان **(است** — est)

فى الفارسية والفرنسية ليست تطويرا آريا لكلمة (الاس) وانما هي اقتباس مباشر من التطوير العربي ، وان كل ما فعلته الآريات هو انها تشبثت بهذه الكلمة بصيغتيها (الاس والاست) حتى جعلتها لازمة للجملة الاسمية مثل لزوم الشين الذي تشبثت به اللهجة المصرية والمغربية فى حالات النفي .

ومهما يكن فاننا نجد الصيغتين (اس و است) كلتيهما فى الفارسية بمعنى الكينونة للغائب ، فهم يقولون : (كتاب مفيد **است**) بالفصحى الرسمية ؛ و(كتاب مفيد **اس**) بلهجة شيراز . وكنا نظن لغة شيراز هذه عامية مخففة من الفصحى ، غير اننا حرنا نرجح ان لغة شيراز اثيلة مستقلة اي انها من (الاس) مثل (is) الانكليزية و (esse) اللاتينية ، كما ان (است) الفارسية ونظيرتها (est) الفرنسية اثلها (الاست) .

وجدير بالذكر ان همزة (اس واست) تكون فى الفارسية همزة وصل فى مثل (كتاب مفيداس ، أو مفيداست) فانهم ينطقونها : مفيدس ؛ ومفيدست . وانما تكون همزة قطع فى مثل : آن عمارت مدرسه است ، اي : تلك العمارة مدرسة .

واذا اتخذنا هذا منطلقا لدراسة نشوء فعل الكينونة فى الآريات نجد فى هذه العبارة مثلا ان (اس ، واست) كانا ضميرين يلحقان بالالفاظ الفارسية بمعنى (هو) . ويؤكد لنا ذلك ان (اس) ما زال ضميرا متصلا بهذا المعنى فى الفارسية بصورة (اش) الذي قلنا ان اثله (ايس) العربي .

لكن فعل الكينونة ، او ضمير الكينونة — والافضل ان نسميه **اداة الكينونة** تسهيلا للتعبير ودفعا لكل التباس — نعم ان اداة الكينونة تختلف صيغها باختلاف حالات الافراد والجمع لكل من المتكلم والمخاطب والغائب ، اي ان كل واحد من الضمائر المنفصلة له اداة الكينونة الخاصة به ؛ وهى فى الفارسية نفس الضمائر المتصلة بالافعال فى مختلف تلك الحالات .

الكينونة فى الفارسية

ولعل الفارسية اقدر اللغات الآرية على ارشادنا الى كيفية نشوء ادوات الكينونة . وايضاحا للفكرة ندرج فيما يلي الضمائر المنفصلة فى الفارسية يلي كلا منها نظيره المتصل (الذي هو فى الجملة الفعلية ضمير متصل وفى الجملة الاسمية اداة كينونة) :

الضمير المنفصل	المتصل (والكينونة)
انـــا :	مـــن أم
نحـــن :	مـــا ايـــم
انـــت :	تـــو اي
انتـــم :	شمـــا ايد
هـــو :	او أست (اس)
هـــم :	ايشـان انـــد

ففي الجملة الفعلية نقـــول :

رفتم ، رفتـــه **أم**	ذهبت (أنا)
رفتيم ، رفته **ايم**	ذهبنـــا
رفتي ، رفته **اي**	ذهبت (انت)
رفتيد ، رفته **ايـــد**	ذهبتـــم
رفت ، رفته **است**	ذهب
رفتنـــد ، رفته **انـــد**	ذهبـــوا

وفى الجملة الاسميـــة نقول :

متشكـــرم	شاكـــر انـــا
متشكريـــم	شاكرون نحن
متشكـــري	شاكـــر انـــت
متشكريـــد	شاكـــرون انتـــم
متشكراست	شاكـــر هـــو
متشكـــرنـــد	شاكـــرون هم

ويلاحظ ان الضمير المنفصل لا يستعمل عـــادة فى الجملة الفعلية عند وجود الضمير المتصل الـــذي يؤدي معناه ، فلا يقال : نحـــن كتبنا ، وهم ذهبـــوا الا فى حالة التأكيد . وانما نقول عادة : كتبنا ، وذهبوا، ورايتما ..

وليس هذا قاصرا على العربية بل الامر كذلك فى الفارسية واللاتينية وغيرهما من اللغات التـــي توجد فيها ضمائر واضحة متميزة ، متصلة بالافعال .

ان بعض اللغات لا توجد فيها ضمائر متصلـــة اصلا كالانكليزية التي توجد كل الضمائر فيها منفصلة . اما العربية فقد اخذت بنظام وصل الضمائر بالافعال لتدل السامع على من يخبر عنه الفعل . لكن الضمائر لا تتصل بالاسماء العربية . واما فى الفارسية فتتصل الضمائـــر بالاســـم أيضـــا ، اي الصفـــة ، — لتـــؤدي نـــفـــس الـــوظـــيـــفـــة ، اي لتدل السامع على من تخبر عنـــه الصفة ، كمـــا راينا فى متشكرم ؛ متشكـــريـــم .. (شاكـــر **أنـــا** ، شاكـــرون **نحـــن** ..)

وكانت النتيجة ان الضمائر المتصلة التصقـــت بـــالاســـم كمـــا التصقـــت بـــالفعـــل ، واصبحت ضرورية لتركيب الجملة الاسمية ولو لـــم يكن المعنى بحاجة الى وجودها ، عند ذكر الشخـــص المقصود بها . اي انها فقدت وظيفتها واكتسبت وظيفة أخرى رمزية اشبه بوظيفة شين النفي . وبتعبيـــر اوضح قليلا ان اداة الكينونة بالنسبة الى المتكلم العربي ليست الا (زائدا لغويا) بقي مستعملا فى الآريات بحكم العادة والاستمرارية . فنحن نقول (الكتاب مفيد) دون ان نشعر ان هذا التعبير ينقصه شيء ليتم أو يستقر. لكن المتكلم الايراني لا يشعر باستواء التعبير وراحة النفس ما لم يضف ضمير الكينونة (است) ، فعندهـــا يقول (كتاب مفيد است) ويتنفس الصعداء .. شـــأن المصري الذي يشعر بعدم الارتياح اذا قال (مالـــي دعوة) ؛ وانما يستقر الامر فى نصابه عندما يقـــول (ماليش دعوة) . وهذا شأن سائر الناطقين بالشيـــن طبعا من مغاربة وغيرهم ، ان كان هناك غيرهم **ايضا**.

فاذا كان القارىء الكريم يتفق معنا فى القـــول بان ادوات الكينونة انما هي ضمائر فى الاثـــل — ونحسب الادلة السالفة كافيـــة لاقناعه بذلك — فلابد ان ذلك يستتبع اتفاقه معنـــا كذلـــك علـــى ان العبارات الآنفة الذكر : الغائب معـــذور ، والرجـــال قوامون ، وانتم النـــاس .. لا تعنـــي فى الآريـــات : الغائب **يكون** معذورا ، والرجال **يكونـــون** قوامين ، وانتم **تكونون** الناس .. كالذي يظـــن نحاتهم وانمـــا الصحيح ان معناها الحقيقي الاتلـــي : الغائب **هو** معذور ، والرجال **هم** قوامون ، وانتم **انتـــم** الناس .. وهذا يصدق على الآريات الاوربيـــة التـــي يقـــع ضمير الكينونة فيها بيـــن المبتدأ والخبـــر ، واما فى الفارسية التي يقع فيها ضمير الكينونـــة عادة بعـــد الخبر فتكون ترجمة العبارات المذكورة بالنسبة اليها هكذا : الغائب معـــذور **هو** ، الرجال قوامون **هم** ، انتـــم الناس **انتـــم** ..

وانما سموها افعالا لانهم وجـــدوا لها صـــورا للماضي غير صيغ المضارع والمستقبـــل فتوهموا ان اختلاف الصور ضرب من الصرف ! ومـــع هـــذا شعر نحاتهم — النحاة الانكليز مثلا — انها ليست افعالا بالمعنى الصحيح فسموها **أفعالا مساعدة** .

وصفوة القول انها ضمائر انقلبت شبه افعال .

اي انها ضمائر فقدت ضميريتها ، ثم اصبحت افعـــالا بلا فعليـــة .. لها من الفعل تصريفه الزمني وليس لها دلالتـــه على عمـــل شيء .

ان اداة الكينونة شيء لا هو بالضمير حقيقة ولا هو بالفعل واقعيا ــ خنثى . او هي شيء بين الفعل والضمير : اشبه بالحيوان النباتي .. كالحيوان يتحرك ويصيد ، وكالنبات ثابت في الارض لا يملك انتقـــالا من موضعه .

الكينونـــة في سائر الآريـــات :

على ان نشوء ادوات الكينونة مـــن الضمـــائر في سائر الآريات ليس بمثل هذا الوضوح والاطراد الذي شهدناه في الفارسيـــة . فان ادوات الكينونة فيهـــا ــ في الانكليزيـــة والفرنسيـــة والايطالية مثـــلا ــ ليست هي الضمائر المتصلة نفسها ، وانما هي ضمائر اخرى اختيرت ، بطريق الانتخاب الطبيعي في التطور، من الصيغ الكثيرة المتنوعة التي تولد بعضهـــا مـــن بعض بسبب تبلبل الالسنة واختلاف اللهجات .

وسبب ذلك هو اما ان اللغة ليست فيها ضمائر متصلة كالانكليزية ، واما ان الضمائر المتصلة فيهـــا ليست من الوضوح والكفاءة بحيث تستطيع وحدهـــا اداء المعنى بمجرد ذكرها مع الفعل كما هي الحال في الفرنسية التي اصبح فيها الضمير المتصل بالفعـــل مجرد علامة لا تغني عن ذكر الضمير المنفصل معهـــا للدلالة على الشخص المقصود هل هـــو المتكلـــم ام المخاطب ام الغائب ، الفرد ام الجمع ، ولو ان كل واحدة من هاته الحالات لها ضميرها المتصل الخاص بهـــا . وبتعبير آخر ان الضمير المتصل قد اصبـــح في الفرنســـية (زائدا لغويـــا) هو الآخر . فمن اجـــل هذا استعملوا ضمائر اخرى لاداء معنى الكينونـــة في الجملة الاسميـــة .

وندرج فيما يلـــي ادوات الكينونة في **الانكليزية** المستعملة مع مختلف الضمائر :

انـــا : am = آ + م **(نا)** .
نحن : are = آ + ر (زائدة ، او مبدلة من اللام : **نـــا)** .
أنت : art = آ + ر (كذا) + ت **(تـــا)** .
أنتـــم : are (آنفـــا).
هـــو / هـــي : is = اي **(آ)** + ز (ت ، **تـــا)**
هم : are (آنفـــا) .

واما في **الفرنسية** فان ادوات الكينونة كما يلي :

انـــا : suis = ســـو (تو ، **تا)** + اي **(آ)** + س **(تـــا)** .
نحـــن : sommes = ســـو (تو ، تا) + م **(نا)** + اي **(آ)** + س **(تـــا)** .
أنت : es = اس = اي **(آ)** + س **(تا)**.
أنتم : ettes = اي **(آ)** + ت **(تا)** + اي **(آ)** + س **(تـــا)** .
هو / هي : est = اســت = **(آ)** + س **(تا)** + ت **(تا)**
هم : sont = ســـو (تو ، **تا)** + ن **(نا)** + ت **(تـــا)** .

فعـــل التملك

ونضيف الى حديثنا هذا عن (افعال) الكينونـــة كلمة عن (افعال) مساعدة شبيهة بها في الآريات وقد ترجموا اسمها الى العربية : (افعال التملك) ، لكننا نؤثر ان نسميها (ادوات **العندية)** لان ترجمة هـــذه الافعال ليست (انا املك ، انت تملك) ولكن (عندي ، عندك) ...

والآريون يضيفون هذه الادوات الى الفعـــل لتزمينه اي لتحديد زمنه . وهـــي على اختلافهـــا في الآريات تنتمي اثلا الى الضمائر ايضا ..

وهي في الفارسية نفس الضمائر المتصلة . وهذا معناه ان الضمائر المتصلة تـــؤدي في الفارسية ثلاث وظائف : الاولى تعيين فاعل الفعل ، والثانية اداء معنى الكينونة في الجملة الاسمية ، والثالثة تزميـــن الفعل .

اما في الآريات الاخرى ــ ولنأخذ منها الانكليزية والفرنسية ــ فان ادوات العنديـــة ضمائر خاصـــة بوظيفة تزمين الفعل ، وانما سموها افعالا كادوات الكينونة لان صيغها تختلف كذلك باختلاف زمـــان الفعـــل .

وندرج فيما يلـــي ادوات التزمين في **الانكليزية** مع مختلف الضمائر في حالة المضارع :

انا ، نحن انتم ، هم : have = ها **(آ)** + و **(آ)** .
انت : hast = ها **(آ)** + س (ت ، **تـــا)** + ت **(تـــا)** .

هو / هي } has = ها (آ) + س (ت ، تا) .

واما في الفرنسية فأدوات التزمين للمضارع كما يلي :

انا : ai = آ

نحن : avons = آ + وو (آ) + ن (نا) + س (ت ؛ تا) .

انت : s = آ .

أنتم : avez = آ + وي (آ) + ز (ت ؛تا)

هو / هي } : a = آ .

هم : ont = او (آ) + ن (نا + ت (تا) .

اختلافها عن العربية :

والذي نتوهمه بعد كل الذي رأيناه من نشوء الضمائر وتطوراتها وهجراتها ان ظاهرتي التزمين والتكنين هاتين ليستا من صنع الآريات وانما هي من نتاج المصهر اليعربي . ولا نقصد (ادوات) التزمين والتكنين نفسها ؛ فان هذه الادوات وغيرها قد فرغنا من اثبات عروبتها ؛ لكننا انما نقصد الآن عروبة ظاهرتي التزمين والتكنين كقاعدتين لغويتين .

لقد رأينا ان هذه الآريات انما تتفق في وجود هاتين القاعدتين فيها لكنها تتباين في الطريقة وتختلف في الادوات التي تستعملها لهذا الغرض — مما يدل على وحدة اصولها مع تعدد فروعها . اي ان الآريات قد اقتبست الفكرة (القاعدة) من منبع واحد .

وما دامت الادوات نفسها عربية فلنا ان نظن ان ان هذا المنبع الواحد الذي صدرت عنه (القاعدة) هو العربية ايضا .

والظاهر ان الاعربين الاقدمين كانوا يستعملون ادوات التزمين والتكنين لكن كل طائفة منهم استعملت ضمائرها الخاصة بها .

وقد خضعت هذه الادوات التزمينية والتكنينية لما خضعت له سائر الضمائر والمفردات اللغوية من تشابه وتباين وتحريف لفظ وتحوير معنى بنتيجة تطورات الاختلاط والتنقل .

وقد هاجر من المعربة نفر من كل طائفة من تلك الطوائف ؛ في اوقات مختلفة وحملوا معهم آثارا من كل ذلك بقي منها ما بقي في الآريات . أما في المعربة نفسها فقد اندرس ما اندرس من تلك اللهجات اما لان اصحابها قد غادروا المعربة كلهم ، واما لان من بقي منهم فيها قد اندمج في المجموعة اللغوية التي خلفتها لنا الاحقاب . ولاسيما ان نزعة الايجاز والتركيز اخذت تظهر في العربية وتتمكن من السنة اصحابها فاستطوا الادوات التوكيدية اي التي يتوكأ عليها المتكلم في كلامه ؛ ومن جراء ذلك سماها الانكليز مثلا بالافعال المساعدة (Auxiliary Verbs) كالذي قلنا .

ولعل حركات الاعراب التي رأينا آنفا انها من بقايا الضمائر كانت قد استعملت في العربية اول الامر للتزمين او التكنين او كليهما في حقبة ما ثم تغيرت وظيفتها . ويلاحظ ان حركات الاعراب داخلية في الجملة العربية ، اي انها توجد في داخل الجملة فقط، اما اذا وقعت احداها في آخر الجملة فحكمها ان تحذف او تخفف ؛ وذلك بحذف حركة آخرها ان كانت متحركة وحذف النون منها مع الحركة التي تسبقه ان كانت منونة (عدا الفتحة التي تبقى بعد حذف النون).

وما هذا الحذف الا امتداد لنزعة الايجاز التي قضت على ادوات التزمين والتكنين وغيرهما في العربية على ما يظهر .. بينما اللغات الاخرى التي كانت تحرك اواخر الكلمات كانت تحتفظ بالحركة عادة حتى عند الوقف كالاكدية التي كانت تضم اواخر الالفاظ والارمية الغربية التي تزتفها والارمية الشرقية التي تفتحها — كالذي مر بنا حديثه .

على أن بعض الاعربين كانوا قد استطوا حركات الاعراب ايضا بوجه عام ؛ ثم صار ذلك شأن العرب اجمعين في لغاتهم الدارجة اليوم ؛ وهذا امتداد آخر لنزعة الايجاز ؛ وقد ساعدت عليه مخالطة الاعاجم ايضا . ولولا الاسلام والقرآن وما جرى بسببهما من جمع وتدوين ووضع قواعد لما عرفنا اليوم شيئا عن هذه الفصحى التي ننفق ما ننفق من جهد في تعلم صرفها ونحوها ؛ بل لانفقنا مثل هذا الجهد في تعلم الدارجة المحلية بدلا منها ؛ ولضاع علينا كل التراث الجاهلي وكل ما قام عليه من تراث .

ولئن كانت العربية قد تخلصت من هذه الرواسب اللغوية التطورية — التكنينية والتزمينية — التي احتفظ بها ابناء عمومتنا الآريون ، فان حركات الاعراب ليست هي الاخرى الا رواسب تطورية

مشابهة فى العربية ؛ وما تزال آثار منهـا متخلفة فى بعض اللغات الاوربية كالالمانية والايطالية والروسية.. لكن بدرجات متفاوتة وطرائق متباينـة .

والنتيجة النهائية التـي حصلت بيدنا الآن هي أن بعض اللغات احتفظت بالتزمين والتكنين وتخلصت من الاعراب كالفارسية والانكليزيـة .. وبعضهـا احتفظت بالاعراب وتخلصت من التزميـن والتكنيـن كفصحانا العربية .. وبعضها احتفظـت بالتكنيـن والتزمين بالاضافة الى حركات الاعراب كالالمانية .. وبعضها تخلصت من هذه الرواسب جميعا كلغاتنـا الدارجة بوجه عام وبعض اللهجات العربية القديمة .

الفصحـى

واذا سئلنا الآن ايها نفضل ؟ لم نتردد فى ايثار فصحانا . ولا نحب الدخول فى جدال طويل بهذا الشأن. فربما كان سبب ايثارنا اياها عاطفيا محتا لانها لغتنا التي الفنا القراءة والكتابة بها ولسراوتها بالقيـاس الى مستـوى العاميـات . وربمـا كـان سبـب ايثارنـا لها مـا تمتـاز بـه حقـا من رصانـة ودقة وعمق ومرونة وتركيـز .. وذخيرة هائلة مـن المفردات والتعابير .. عدا ما فيها من اسرار الاشتقاق وروائعـه .

أما الاعراب فلا نعده من سيئات الفصحـى ولاسيما ان الاقدمين قد خففوا وطأته لنا بالتخلي عنه فى أواخر الكلام اي بالوقف على السكون . أما وجـود الحركات من داخل الجملـة فالاغلب انـه لاينافـي الاقتصاد فى اللفظ لان الاوروبيين انفسهم لا يجـدون مناصا عند التقاء ساكنين من تحريك أولهما او مـا قبله بكسرة خفيفة كالذي نفعله نحن فى دارجاتنا .. حتى ان ضرورة التحريك هذه قد جعلت بعض القدامى من اللغويين العرب يظنون ان حركات الاعراب انمـا نجمت فى العربية من هذه الضرورة .

لكن هذا لا يمنعنا من القول ان بعض قواعـد الاعراب والبناء بحاجة الى شيء من تعديل وتنسيـق وتنقية من الشوائب والشواذ . وقد حقق نحاتنا الرواد الاوائل من ذلك ما يستأهلون عليه الثناء والتقدير حين نفوا الكثير من بدوات اللهجات الخاصـة ونبذوا بعض النواشـز آخذيـن بالاعم الاغلب .

وأحسبنا الآن بحاجة الى اعادة الكرة ليتـم نحاتنا المعاصرون ما بداه أسلافهم فيجاروا صرورات العصر تنسيقا وتعديلا وتيسيـرا . فان تنوع العلوم اليوم جعل وقت التلميذ اثمن من ان ينفقه فيما لـم يستطيع أحد أن يتعلمه كاملا من قواعد الصرف والنحو على حالها الحاضرة ؛ التي يتطلب التخصص فيهـا من الزمن ما يكفي للتخصص فى الطب أو الذرة .

وعسـى الا يتوهم متوهم اننا بهذا نقضي على لغتنا أو نهدم حياضها ؛ وانما تعتيد قواعدها وصعوبة تعلمها مع ضيق وقت التلميذ هو الذي سيفضي الـى انحلال اللغة وضياعها كالذي اصـاب اللاتينية . ولا سبيل لنا الى المحافظة عليها وانقاذ ما يمكن انقـاذه منها الا بتيسيرها . وقد تحدث الكثيرون فيما ينبغـي نبذه أو تعديله من قواعدها فلا حاجة بنا الى الافاضة فيـه .

ايجاز العربيـة

نزعة التركيز والايجاز فى العربية قد اعترضـت سبيلنا غير مرة فى حديثنا هذا عن الضمائر واسرارها فمـا مأتاهـا ؟

يبدو أن هذا التركيز فى المعاني الكبيرة يوعبونها العبارات الصغيرة كأنها حبوب الطعام المركز للرحلات القطبية أو الفضائية — يبدو انه امتداد لنزعة عربية قديمة العهد ، نجد آثارها فى اسقاطهـم بعض ادوات الكلام التي تعتبر ضرورية فى التعابير الاعجمية بوجه عام . من ذلك مثلا قولك : لا احب الرجـل يهـزل وقت الجد (بدلا من : لا احب الرجل **الذي** يهزل وقت الجد) ، وقولك : ذهبوا يجاهدون (بدلا من : ذهبوا **كي** يجاهدوا) ، وقولك : شرعت أقرا (بـدلا من : شرعت **أن** اقـرا) ..

ان اسقاط **الذي وكي و أن** ، يجعل الكـلام فى العربية أفصح واوقع الا انه لا يجوز فى الانكليزية مثلا.

فلا عجب أن اسقط العـرب ادوات التكنيـن والتزمين وهي اشبه بالزوائد اللغوية منها بأي شيء آخـر .

ومهما يكن فأن هذه الخصلة — نزعة الايجاز — طارئة فى العربية ، بدليـل انها لا توجد فى الآريـات المنسلخـة منهـا باعتبـار ان هـذه الرواسـب والزوائد التي نجدها فى الآريات ترجع بائلها الـى العربيـة نفسهـا كما قلنا .

وهذا معناه فيما يخيل لنا ان الآريات قد انشعبت من الاعربية منذ عهود سحيقة اي منذ الهجرات الاولى حين أخذت المعربة بالجفاف على اثر انحسار الجليد عن أوربا . وكانت اللغة الاعربية عهدئذ على حالتهـا الطبيعية الاعتيادية الاولى . غير أن الجفاف وتحـول

الجنة المعربية الى صحراء قاحلة محترقة محرقة جيلا بعد جيل ، وما استتبع ذلك من قسوة الطبيعة ومشاكل العيش واخطاره وغزواته ومفاجئاته جعلت القوم اميل الى الاقتصاد فى الكلام ولاسيما فى الحالات التي تتطلب المسارعة والمبادرة الى عمل او قتال او فرار . لهذا نجد البدوي يتكلم نتلا ، فاذا هو حدثك عن شيء مهما يكن تافها او بعيدا عن الاثارة كقوله مثلا : شربت الماء ، او سأنام ، أو طارت الجرادة ، او مات جدي قبل ستين سنة .. تلحظ انه يقول ذلك بالفاظ قوية اللحن يقذفها من فمه قذف الحجارة من المقلاع، وبنبرة اشبه بلهجة الامر منها بلهجة الخبر ، كأنما هي الايعازات العسكرية الفورية فى ساحة المعركة ، وكأنما هو يقول : شب الحريق ، هاهو العدو ، اضرب ، اركب ، اسرع ..

هذا ما يعن لنا الآن فى تعليل خصلة الايجاز التي تتسم بها العربية ، نذكره بتحفظ ، وقد يكشف لنا البحث عن تعليل اوجه منه فى المستقبل . والله اعلم !

الضمائر الارية

جميع الضمائر المنفصلة ، فى حالة المسند اليه — نعم جميعها — يمكن ارجاعها فى الفارسية والانكليزية والفرنسية والايطالية ، الى عناصرها الاولى من العربية . ومثل هذا يقال بشأن الكثير من الضمائر الاخرى فى لغات آريات اخريات ، وغير آريات بله الحاميات والساميات .

فأما فى **الفارسية** فهي :

انا : **من** = ما **(نا)** + ن **(نا)** .
نحن : **ما** = **(نا)** .
أنت : **تو** = **(تا)** .

انتم : **شما** = شو (تو ، تا) + ما **(نا)** (وكأنها من التاء والميم فى قولك بالعربية : نظرتما) .

هم : **آنان** = آن (آ + نا) + آن (آ + نا) .
هم : **ايشان** = **ايش** (اي ، آ + ش ، س ؛ تا) + آن (آ + نا) .
هم : **آنها** = آ + (نا) + ها (آ) .

واما فى **الانكليزية** فهي :

أنا : I (آي) = آ .
نحن : we = اى (آ) .
أنت : thou = ذو (تو ، تا) .
أنتم : you = يو (او ، آ) .
هو : he = (اي ، آ) .
هي : she = شي (تي : تا) .
هو ، هي (الغير العاقل) : it = اي (آ) + ت (تا) .
هم : they + ذي (تي ، تا) .

واما فى **الفرنسية** فهي :

انا : je = يي (اي ، آ) .
نحن : nous = نو **(نا)** + س (ت ، تا) .
أنت : tu = تو **(تا)** .
أنتم : vous = يو (او ، آ — كالانكليزية) + س (ت ، تا) .
هو : il = اي (آ) + ل (ن ، نا) (راجع لام التعريف آنفا) .
هي : elle = اي (آ) + ل (ن ، نا) .
هم : ils = اي (آ) + ل (ن، نا) + س(تا)
هن : elles = اي (آ) + ل (ن ، نا) + س (تا) .

وهي فى **الايطالية** :

انا : io = اي (آ) + يو (او ، آ) .
نحن : noi (نوي) = نو **(نا)** + اي (آ) .
أنت : tu = تو **(تا)** .
أنتم : voi = يو (آ) + اي (آ) .
هو : esso = اي (آ) + سو (تو ، تا) .
هي : essa اي (آ) + سا **(تا)** .
هم : loro = لو (تو ، نا) + رو (العلل اثلها : لو ، نو ، نا) .

اسماء الاشارة

قلنا ان **(الهمزة)** استعملت ضميرا عاما واسم اشارة . وقد كان من جراء استعمالها اداة تنبيه بصيغة **(ها)** ان فقدت معناها للاشارة ، غير انها لصقت ببعض اسماء الاشارة مثل : هذا ، هذه ، هؤلاء — فقلما يقول المحدثون : ذا ، ذه ، اولاء . حتى فى الفصحى .

واما **(النون)** فلا نراه فى العربية اسما للاشارة او جزءا من اسماء الاشارة المتعارفة ، لكننا نجده فى بعض الاسماء التي (تشير) الى الزمان او المكان الحاضرين مثل : **هنا** (= او + نا) ، وهي

بالانكليزية : here (بابدال النون راءا) .. ومثل **الآن** (= آ + نا) ، ومنها : **الاوان** ، والفعل آن **اونا** (= تمهل) و : آن **اينا** (= حان) . وهي بالانكليزية now (مقلوب الاون) بمعنى : الآن .

وانما يختص النون بمعنى الاشارة فى الفارسية، على هذا النحو :

ايـن : هذا .
آن : ذلك .
اينان : هؤلاء (للعاقل) .
اينهـا : هؤلاء (لغيره).
آنـان : اولئك (للعاقل) .
آنهـا : اولئك (لغيره) .

غير ان **(التاء)** هي الضمير الخصب الذي اختص بمعنى الاشارة فى صيغ شتى ولاسيما فى العربية والانكليزية :

ونجدها فى العربية بابسط صورها واقدمها **(تا)** بمعنى هذه ، ومنها : **(تي)** بنفس المعنى . وتثنى على: **تان وتين** . ومنها **تيك** ، **وهاتيك ثم تلـك** .

وقد ابدلت التاء ذالا فنشأت صيغة **(ذا)** واختصت بالذكر ، و **(ذي)** واختصت بالانثى ؛ ومنها **(ذه)** بنفس المعنى .

وتعتمد الانكليزية كل الاعتماد على هذه الاداة الاشارية الذالية فتصوغ منها جميع اسماء الاشارة فيها ، مثل اعتماد الفارسية على الاداة النونية . يقول الانكليز :

this : هـذا .
that : ذاك
these : هؤلاء
those : اولئـك .

واما الفرنسية فقد اتخذت التاء مادة لاسماء الاشارة فيها لكن بعد ابدالها سينا وهي : ça و ce, و cet, و cette, و ces, ، لمختلف حالات الافراد والجمع والتذكير والتانيث . وهذا برهان آخر على ما سبق ان قلناه من ان (السين) فى الضمائر الآرية يرجع فى اثله الى (التاء) .

واما فى الايطالية فنذكر صيغة cosi : كذا.

معـان اخـرى

جدنا المعربي الذي بدا مشروع تشييد هذا الصرح الباذخ لاروع اللغات واغناها واقدرها على تصوير هجسات الضمير وخلجات الذهن — كان هو نفسه يعاني فقرا لغويا كبيرا ، فما اكتفى باستعمال كل واحد من الضمائر القليلة التي يملكها ضميرا عاما واسم اشارة ، وانما استعملها بالاضافة الى ذلك فى اشتات من المعاني الاخرى التي عرضت له على طريقة الراعي التي نوهنا بها ، فى استعمال عصاه ..

وقد دام ذلك احقابا مديدة فيما يبدو ؛ لان تعدد المعاني التي استعملت فيها الصيغة الواحدة لم يقتصر على الضمائر البدائية العنصرية (آ ، نا ، تا) وانما شمل صيغها المتطورة ثم المركبة ، التي لابد انها لم تنشأ الا بعد مرور اجيال كثيرة . حتى ان ضمير (انت) الذي اعتبرناه اكمل صور تركيب الضمائر قد استعمل ضميرا عاما كالضمائر البدائية ، ثم استعمل فى معان اخرى غير الضمير والاشارة ، كما سنذكر بعد .. مما يدل على ان طفولة اللغة قد استغرقت زمنا طويلا ، وانها لم تتقدم الا ببطء شديد .

وبعض هذه المعاني قريب من معاني الاشارة والضمير كالذي راينا وبعضها بعيد عنها لا صلة له بها كالذي سنرى . وما كنا لنقدم على القول ان هذه المعاني البعيدة ترجع فى اثلها الى الضمائر لولا ان صيغها يقود بعضها الى بعض من حيث المعنى او المبنى ، ولولا ما مر بنا من كثرة تخبطات الاعراب الاقدم التي تستدر الرثاء من جهة وتشبثاته الجريئة التي تستحق العطف والاعجاب من جهة اخرى .

ولابد ان كثرة اخطائه فى نطق الالفاظ على غير وجهها واستعمالها فى غير معانيها قد سبب له الكثير من سوء التفاهم وضرب الهراوات ؛ الا ان لهذه الاخطاء المباركة فضلا كبيرا فى خلق صيغ جديدة، ساعد التركيب اللغوي على تكثيرها ، فاستعملت فى معان جديدة او تخصصت فى معان قديمة .. كالذي مرت بنا شواهد متنوعة منه .

الهمـزة

وقد راينا ان الهمزة استعملت للتنبيه اولا ، ثم للنداء ، ثم للضمير ، ثم للاستفهام والايجاب .

ومن توليداتها — عدا كل ذلك — واو العطف الذي كان اولا **(او)** كما لا يزال العرب ينطقونه فى الدارجات ، ثم ظهرت منه صيغة **(و)** فتخصصت بعطف الجمع كما تخصصت **(او)** — بفتح الهمزة — بعطف الشك كما يسميه النحاة . وينطقها بعضهم فى العراق

(يا) فى مثل قولهم : **يا هذا يا هذا** ، اي : اما هذا واما هذا . وكذلك هي فى الفارسيـــة ، بنفس المعنـــى : **يا ايـــن يا ايـــن** .

وينطقها بعض العراقيين **(لو)** فى مثل : تريد هذا **لـــو هـــذا** ؟

ومن واو العطف نشأت **(الفاء)** للترتيب والتعقيب ولا عجب فى قلب الواو فاءا ، فان (اين) التي ينطقهـــا الكثيرون من العرب فى دارجاتهم (وين) انقلب واوها فاءا عند المصريين والمغاربة فنطقوها (فين) .

ولئن كانت الهمزة المكسورة **(اي)** تعني الايجاب مع القسم فى مثل (اي والله) فى الفصحى فانها تعنـــي مجرد الايجاب (نعم) بالســوريـــة والعراقية وغيرهما . لكنها تظهر بشكلها البدائي الاقدم فى المصرية بمعنى نعم : آ ـ

اما المغاربة فينطقونها : **ايه** (iyyah)
وربما منها نشأت الصيغة المصرية الاخرى : **ايـــوه** .
ونذكر بالمناسبة انها تنطق بالارمنية : آيو (âyo) !

ومن الهمزة ايضا صيغت **(اي)** بفتح وسكون ـــ وهي حرف التفسير ، و**(أي)** بتشديد الياء ـــ ولهـــا فى المعجم عـــدة معـــان .

فاذا انتقلنا الى الآريات نجد للهمزة فى بعضهـــا صورا كثيرة منها التاليـــة :

a :قط ، ابدا ـــ بالسكسونية (ومعان اخرى) .
a : اداة تنكير تسبق الاسم ـــ بالانكليزية .
a : علامة تأنيث ـــ بالايطالية (ولعلها مخففـــة من تاء التأنيث العربيـــة .
a : الى (حرف الجر) ـــ بالايطالية .
a : عنده (اداة تزمين) ـــ بالايطالية والفرنسية.
à : الى ـــ بالفرنسية والايطالية .
ay : نعم ـــ بالانكليزيـــة .
aio : يقول نعم ـــ باللاتينيـــة .
ay : (اي) : يا (للنداء) ـــ بالفارسية .
aya (آيا) : هل ؟ ـــ بالفارسيـــة .
ayo : نعم ـــ بالارمنيـــة .
e : واو العطف ـــ بالايطالية .
e : اداة جمع الاناث ـــ بالايطالية .
i : اداة جمع الذكور ـــ بالايطالية .
o : اداة نداء ـــ بالانكليزية والفرنسية .
o : عندي ـــ بالايطاليـــة .
o : علامة تذكيـــر تلحق الاسم ـــ بالايطالية .
o : او (حرف العطف) ـــ بالايطالية .
or : أو ـــ بالانكليزيـــة .
ou : أو ـــ بالفرنسيـــة .
ou : اين ـــ بالفرنسيـــة .
oui : نعم ـــ بالفرنسيـــة .

النـــون

نجد النون بصيغته البدائية فى الفارسية بمعنى (لا) فى مثل (**نا** مرئي) اي لا مرئي ، غير مرئي ، ومثل : **نـــا** معقول ..

ولا يستغرب استعمال الضمير (نا) بمعنى النفي ولا سيما اذا تذكرنا ان ضمير الهمزة قد استعمـــل بمعنى الايجاب فى عدة لغـــات ، وبمعنـــى النفـــي فى السكسونية وربما فى غيرها ايضا . ويؤيـــد ذلك ان **(ان)** ـــ بكسر فسكون ـــ تعني النفي فى العربيـــة ايضا مثل : **ان** هو الا وحي يوحى .

ولها فى الفارسية صيغة اخرى هي **(نه)** وتقابلها فى العربية : **ما ، ولا** . والظاهر أن هاتين الصيغتيـــن العربيتين متطورتان من صيغة (نا) التي اندرست فى العربية بمعنى النفي وبقيت بصيغتها المديدة والقصيرة فى الفارسية . ومما يدل على عروبة (**نه**) انهم اشتقوا منها فعل (نهى نهيا) .

وهي تظهر فى بعض الآريات بصيغة no و nox. ومن الجدير بالذكر أن العراقيين ينطقونها **(مو ـــ** mû) فى نفي الاسماء والضمائر مثل : **مو** آني ، **مو** احمد ، **مو** تعبان .. اي : ما انا ، ليس احمد ، ليس تعبـــان (أو غير تعبان) . وهم ينطقونها **(ما)** فى نفي الافعـــال مثل : **ما** يجي ، **ما** يخالف (اي لابأس) .

التـــاء

بالاضافة الى المعاني الضميرية والاشارية التي نشأت من **(تا)** كالذي سبق ذكره ، نشأت منها مـــن المعاني الاخرى صيغة **(حتى)** بمعنى : أيضا ، والى ، وكـــي ..

وان خامر قارئنا العزيز شيء مـــن الريب فى ان (حتى) ما هي الا (تا) قد فئمت بالحاء فلابد انه ليس من المغاربة ، لان **(تا)** بصيغتها الاولى هذه تعني بلغـــة المغرب : الى ، وايضا ، مثل (حتى) . فهـــم يقولون : **(تا تشوف)** : الى أن ترى ، و (**تا انا**) : انا أيضا .

غير ان الفرس يستعملون **(تا)** بالمعنيين : الى، وكي (للتعليل) .

أما الانكليز فيستعملونها بالمعنيين المغربيين في صورتين : to (الى) ، و too (ايضا) .

وقد استعملت التاء في العربية بمعنى الموصولية، وعرفوها باللام فصارت **(التي)** (=ال+تي) ؛ ومنها : **اللتان** ؛ **واللتين** ؛ **واللتيا** ، **واللاتي** ..

* * *

ولنستعرض فيما يلي بعض الصيغ المتطورة من الضمائر التي استعملت في غير معاني الضمائر واسماء الاشارة ؛ لاعطاء فكرة اجمالية عن تعدد معانيها .

آ ن :

اراد غابي معربي من اهل الضمير **(آن)** أن يحدث صاحبه عن الوقت الحاضر فلم يجد غير هذه اللفظة التي كان يستعملها لمختلف المعاني ، فقال **(آن)** بمعنى : **هذا** الزمان . وقد استعملها بمعنى المكان الحاضر ايضا ؛ اي **هذا** المكان . لكنها تطورت بهذا المعنى الاخير فصارت لها بضع صور بقي لنا منها في العربية **(هنا)** ، و**(هنا)** من وزن كنا وحتى — بمعنى هناك . ووردت كذلك بصيغة **(هني)** بفتح الهاء وكسر النون . ولعلها قد كانت لها صيغ اخرى .

لكنها بقيت بصيغتها الاولى **(آن)** بمعنى الزمان ، ومنها **الآن والاوان** ؛ وتظهر في الانكليزية كما قلنا بصيغة : now . وقد قلبوا في العربية فعل **(آن يئين)** فصار **(أنى يأني)** .

كذلك ابدل الاعربون همزتها حاءا فصارت **(حان يحين)** ومنها **(الحين)** بفتح الحاء او كسرها ؛ وقد تخصص الفتح بمعنى الاجل . وتظهر في الانكليزية بصيغة when (حينما) وهي من السكسونية : hawenne

ومن مخلفات عهود التخبط التطوري بقيت لنا صيغة **(أنى)** — زنة حتى — بثلاث معان : الزمان (حينما) ؛ والمكان (حيثما) والنحو (كيفما) . وتستعمل كذلك للاستفهام بهذه المعاني : متى ؛ اين ، من اين ؛ كيف ؟ وصيغة (انى) هذه تكاد تندثر الآن لقلة استعمال المعاصرين لها ؛ بدافع تجنب اللبس في تراعتها على الاخص .

ومن صورها **(أين)** للمكان خاصة ، و**(أيان)** للزمان خاصة ، وقد كادت هذه الاخيرة تندرس هي الاخرى لشيوع صيغة (متى) .

وبينما استعمل اليمنيون القدامى صيغة **(آن)** في آخر الاسم للتعريف استعملها الانكليز بنفسها an في اول الاسم للتنكير !

ونشأت منها في العربية صيغتها **(ان)** المشددة بفتح الهمزة وكسرها وصيغتا **(ان)** المخففة بفتح الهمزة وكسرها ايضا .

ونلاحظ على صيغة **(ان)** المكسورة الخفيفة ان لها معنيين : الشرطية والنفي . وتأتي **(ان)** هذه زائدا لغويا كقول شاعرهم : **ما ان** اتيت بشيء انت تكرهه.

ولضمير **(ان)** على مختلف وجوه نطقه حالات لغوية ونحوية كثيرة لا نريد التوغل فيها وانما نكتفي باستلفات النظر اليها والتوصية بمراجعتها في المعاجم للاطلاع على اناعيل التطور اللغوي .

ومن استعمالات **(آن)** ايضا انها الحقت بالاسم توجيبا لمعناه احيانا لتكسبه معنى الفاعلية ، في مثل: عطشان ، انسان ، رحمان ، سلطان .. او معنى المصدرية في مثل شكران ، وبهتان ؛ وغفران ، وسلطان ايضا ..

وندرج فيما يلي بعض الصور التي تقمصها ضمير **(آن)** في الآريات :

an : اداة تنكير تسبق الاسم المهموز — بالانكليزية ، كما تقدم .

en : في — بالفرنسية .

in : في — بالانكليزية .

in : اداة نفي الصفة ، وتذكرنا بنظيرتها العربية (ان) ؛ ومنها im و un, — بالانكليزية، وما يقارب ذلك بالفرنسية (وهي تستعمل مثل:نا، الفارسية) .. مثل : inflexible : لا ينثني؛و impossible غير ممكن .

on : على (حرف الجر) — بالانكليزية

ian اداة نسبة الى البلد مثل: Indian, Arabian — بالانكليزية .

ien : للذكر و ienne للانثى : اداة نسبة الى البلد بالفرنسية مثل: indien : هندي،و indienne هندية .

one : واحد — بالانكليزية (واثلها : an آنفا) un للذكر و une للانثى : اداة تنكير تسبق الاسم، وتعني كذلك: واحد — بالفرنسية .

ذ ا :

اثلها كما قلنا (تا) التي تعني (هذي) . وقد اختصت صيغتا **(تا ؛ و تي)** بالانثى وكذلك **(ذي)** ومنها (ذه) . اما صيغة **(ذا)** فاختصت بالذكر ، وقد بقيت صيغة جامدة بهذا المعنى .

لكنها تكون معربة بمعنى صاحب ، اي انها تنطق **(ذا . ذو ؛ ذي)** حسب موقعها من الاعراب مثل: ذا النون . **وذو** النون ؛ **وذي** النون . وهي تطالعنا في الفرنسية بصيغ : des, du, de بمعنى الاضافة ايضا لكن بعكس المعنى . اي ان (ذا يزن) تعني في العربية صاحب يزن ، بينما Jeanne d'Arc تعني في الفرنسية : جان التابعة لآرك ، اي ان (آرك) هو (صاحب جان) .

وقد انثوا (ذا) فصارت **(ذات)** وجمعها **(ذوات)**، غير ان المثنى يأتي شاذا بصيغة **(ذواتان)** وكأنه تثنية للجمع ، بدلا من (ذاتان) . ومنها الاية : ذواتا افنان .

و**(ذات)** هذه استعملوها ايضا كلمة واحدة بذاتها وتائها ، اي باعتبار التاء جزءا منها لا اداة تأنيث . فصارت بهذا الاستعمال تعني النفس او الجوهر مثل : **ذات** الشيء ، ومنها **(الذوات)** باصطلاح المتأخرين : اعيان الناس والشخصيات البارزة فيهم. غير ان تثنيتها **(ذاتان)** ، اي على القياس .

وقد استعملوا **(ذو)** بمعنى الموصولية ومنها القول المشهور : وبئري **ذو** حفرت **وذو** طويت . وليراجع القارىء الكريم تفصيلات معاني (ذو) واستعمالاتها في المعجم . لكننا نكتفي هنا بالقول ان العرب عرفوها باللام فنشأت : **الذي** (= ال + ذي) . والاغلب انهم تالوا ايضا (الذا ، والذو) اول الامر ، ثم اهملت هاتان الصيغتان . وصارت (الذي) تجمع على **(الذين)** في حالات الاعراب جميعها ، اما **(الذون)** فلم يأتنا منها في المأثورات الجاهلية الا شذرات قليلة عدوها شاذة ، من لغة : نحن **الذون** صبحوا الصباحا .

وتظهر (ذي) بصيغة (si) بمعنى (بلى) في الفرنسية ، وبمعنى (نعم) في الايطالية .

واما **(اذا)** فهي في الفرنسية (si) ايضا ، وفي الايطالية (se) ، وفي التركية (ايسه — ise)

واما في الانكليزية فبالاضافة الى صيغ الضمائر والاشارة التي وجدناها آنفا وصيغة (the) بمعنى لام التعريف ، نجد صورة though و although بمعنى : ولو .

انت :

بالاضافة الى ظهور هذه الصيغة في العربية بالمعاني الضميرية التي رأيناها ، وفي الفارسية بمعنى الضمير واداة التزمين والتكنين بصيغة **(اند)** ، وفي الفرنسية اداة تكنين بصيغة (sont) واداة تزمين بصيغة (ont) وضميرا متصلا بصيغة (- ent) نجدها في الآريات بمعان اخرى . منها :

and : حرف العطف — بالانكليزية .

ante : اداة تسبق الاسم بمعنى قبل او سابق مثل : antediluvian قبل الطوفان ؛ و antecedent : سلف ، سالف — بالانكليزية والفرنسية . وهي من اللاتينية .

anti : اداة تسبق الاسم بمعنى الضد والمعاكس مثل antidote ضد السم (= ترياق) — بالانكليزية والفرنسية . وهي من اللاتينية ايضا .

ختام :

هذا قليل حقا من كثير جدا .

فعلى الرغم مما جاء في حديثنا هذا من تفضيلات لعل القارىء وجدها مسئمة ، وشواهد لابد انه رآها كثيرة — نؤكد له اننا اهملنا تفصيلات ومقارنات وضمائر والفاظا من مولدات الضمائر كثيرة اخرى .. اما رغبة في تخفيف الوطأة عن قارئنا واما لتعذر عرضها دون ما ينبغي لها من شرح وبرهان مما يأتي دوره من الحديث في آخره .

ولايضاح هذه النقطة نقول اننا تكلمنا على (الضمير العام) مثلا في اول البحث لكي نتمكن من تفهم ما سيليه من الامور القائمة عليه .

لكننا لم نستشهد من الضمائر العامة الا بالهمزة والا بالقليل من حالاتها . وتركنا الباقي الكثير من الشواهد اضطرارا لاننا لم نكن قد تقدمنا بعد في البحث الى الحد الذي يمكننا من فهمها وقبولها وهضمها. فمن اجل ذلك جاء كلامنا عن الضمير العام مبتسرا ، هزيلا . وقس على ذلك .

اما حين تثبت دعائم دراسة الضمائر على هذه الطريقة ، ويقتنع الباحثون اللغويون بها ، فسيمكن الدخول في الموضوع راسا دون اضاعة وقت او كلام في البرهنة ومحاولة الاقناع ، كالذي فعلنا من السير مع صديقنا القارىء يدا بيد وخطوة بخطوة — مما تقتضيه جدة الموضوع على القارىء والكاتب جميعا .

ونود أن نسجل بهذه المناسبة ان هذه التفسيرات والتخريجات التي مرت بنا انما ازجيناها على انهـــا بعض الاحتمالات الممكنة ، لا على انها فيصل الخطاب .

ان الذي اردنا اليه بالدرجة الاولى هو ان نبسط طريقة للبحث لا ان نقرر حقائق نهائية لا تقبل جدالا . ذلك اننا ادرجنا من الاحتمالات المتعددة التي تتزاحم على المخيلة في كل مرحلة من مراحل البحث ما تراءى لنا أهم واقوم او اقرب الى جادة المنطق من سواه .

واننا لندعو اخانا القارىء الى التمعن في هـذه الضمائر وحالاتها وتفاعلاتها ، ونحن واثقـون انـه واجد بنفسه احتمالات اخرى ، ولعل بعضهـا اقـرب الى السداد من بعض هاته الاحتمالات والاستنباطات التي سقناها . وما نقول هذا مجاملة للقارىء لاننـا في الواقع كثيرا ما نصحح بعض آرائنـا حين تعـن لنا افكار اخرى ، او نطلع من الشواهد او الحقائق على جديد ، او نتذكـر من الامر منسيا .

غير ان الذي مر بنا — على اختصاره ، بنظرنا — كان كافيا لان يرينا كيف ان دراسة الضمائر قادرة على تغيير وجه اللغـة واعطائها ملامح جديدة تثير الدهشة حقـا .

انها تعزق أرض اللغـة عزقا ، وتبتعث مـن احشائها ما لم يكن متوقعا من دفائن ومجهولات .

ولا تقف دراسة الضمائرعند اهميتها الذاتية هذه، فان لها كذلك لاهمية مفتاحية في الدراسات اللغويـة عموما ، فهي خليقة ان تعيننا حتى على حل بعـض المعضلات التي لا صلة لها بالضمائر . لان ما طرأ على الضمائر من تطورات وما رافقها من ملابسات ومـا تسرب منها مع الهجرات البشرية الى مختلف اللغات في مختلف الجهات — ينطبق على اللغة كلها ، ومن ثم ينير لنا نهجا جديدا في البحث اللغوي عامة ويساعدنا على تصحيح نهوج قديمـة .

لقد توفر اللغويون من عرب ومستعربين قديما ، ومستشرقين حديثا، على دراسةالعربيةوافنوا اعماراقي اماطة الاقنعة عن اسرارها . وعلى الرغم من النتائج القيمة التي ظفروا بها قديما وحديثا ، صمدت امامهم في العربية وغيرها طلاسم عنيدة استعصت على كـل محاولة : التنوين ، التعريف ، الاعراب ، الجمـع ، التركيب .. وامثالها من الموضوعات التي حومـوا حولها ما حوموا ، فاقتربوا مـن حقيقتهـا حينـا وابتعدوا حينا ، ولم يصلوا ابدا .

فعليهم منذ اليوم بالضمائر . انها مفتاح الكثيـر من الاقفال اللغوية . أما (الترسيس) فهو من اللغـة بابها الكبير .

وكما صنفوا الكتب في العربية عن (الحروف) سوف يصنفون الكتب في العربية وغيرها عن(الضمائر) وسيجدون في العربية وغيرها عددا كبيـرا مـن الموصولات والحروف والكواسع والرواسن ومختلـف الروابط والادوات والاشتقاقات .. ترجع في اثلهـا البعيـد أو القريب الى الضمائر البدائية .. التي نبتت بذرتها الاولى وازدهرت في الغابـة المعربية .

(نزيل المغرب العربي) — **عبد الحق فاضل**